

## النيل والصحراء خلال العصور الحجرية تباين بيئي وتكامل حضاري

عباس سيد أحمد محمد علي

**ملخص:** تشير الدلائل المناخية والجيومورفولوجية من وادي النيل وشرق الصحراء الكبرى، إلى أن حقبتَي البليستوسين والهولوسين شهدتا تحولات مناخية، تراوحت بين الجفاف والرطوبة، استطاع الإنسان والحيوان والنبات التفاعل معها بنجاح، فقد ظلت الجماعات البشرية تغد على وادي النيل، خلال فترات الجفاف والشح البيئي. وعندما تحسّن الأحوال المناخية، تعود تلك الجماعات إلى استغلال الغطاء الصحراوي. وخلال ذلك يتم تبادل الكثير من الانجازات. إن استيعاب تسلسل الأحداث وطرق التكيف، في وادي النيل وشرق الصحراء خلال تلك الفترة، هو السبيل لفهم الاختلافات التقنية والنوعية، التي عرفتها حضارات العصر الحجري القديم الأوسط في المنطقة؛ وكذلك فهم التباين الحضاري بين جماعات متعاصرة، عاشت معاً في بيئة واحدة، خلال العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر؛ وإلى تفسير ظهور حضارات تحمل خصائص العصر الحجري الحديث في وادي النيل دون مراكز محلية؛ بل وإلى بزوغ الدولة في وادي النيل، إلى جانب قضايا أخرى.

**Abstract.** Environmental and geomorphological evidence from the Nile valley and the adjacent eastern part of the Sahara shows that, during the Pleistocene and the Holocene, this area has experienced a series of climatic fluctuations alternating between extreme aridity and extreme humidity. Man, animal and plant have adjusted themselves successfully to these conditions. When the Sahara was not favorable to sustain human settlements, the Nile Valley acted as a refuge. But when better conditions prevailed, the Sahara had to be repopulated. These alternating conditions have reflected on human adaptations; and cultural elements from both areas were exchanged. Grasping the sequence of events in the Nile Valley and the Sahara is vital for explaining, among other issues: the technological and qualitative variations and phases of the Middle Paleolithic, the cultural diversity among cohesive contemporary groups of the final Paleolithic, the lack of evident Nilotic antecedents for the Neolithic, and even the rise of State in the Nile Valley.

### مقدمة

167-164:1981)؛ ثم أخذ هذا الاهتمام الخاص بالتفاعل بين البيئة والحضارة، يأخذ منحىً أكثر عمقاً خلال القرن العشرين، مسائراً النهج الجغرافي مع آثاريين وأنثروبولوجيين من أمثال جوليان استيوارد، الذي نادى بربط البيئة بالحضارة لفهم دينامية التطور. وكان لهذه النظرة آثارها الإيجابية على الأعمال الأثرية اللاحقة في البيرو والمكسيك، التي قادها غردون ويلي وآخرون. وفي المقابل، قدّم غراهام كلارك دراسة رائدة على النهج ذاته، عن علاقة الإنسان بالبيئة وانعكاساتها على التكيف، في موقع أستار كار (Star Carr) في بريطانيا. وتبلور هذا المنهج عبر دراسات كارل بوتزر (Butzer 1971).

ليس من شك في أن كل دراسة أثرية لحضارة ما، تتطلب معرفة مفصلة وفهماً عميقاً للبيئة المحيطة والمعاصرة لتلك الحضارة؛ فقد ظلت البيئة دوماً إحدى العوامل المؤثرة، في التحول الحضاري. ويشهد تاريخ علم الآثار على اهتمام الأثريين، بدرجات متفاوتة، على دور المناخ في التكيف الحضاري. فمنذ القرن التاسع عشر وما بعده، أُدخلت دراسات المناخ في علم الآثار على أيدي آثاريين وجغرافيين أوروبيين وأمريكيين، من أمثال: فوكس وكروفورد وويدل وهوري (Willey and Sabloff, 1974: 152- 3; Daniel)

المماثلة، التي اقترحها بوترز، تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر حين ارتبطت تسلسل أدوار ما قبل التاريخ بتعاقب العصور الجليدية؛ إذ لا يجوز الحديث عن مرحلة حضارية دون وضعها في إطارها البيئي.

إن المنطقة التي ترسم إطار هذا البحث هي الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى (وليس الصحراء الشرقية)، الذي يقع إلى الغرب من مجرى نهر النيل في مصر وشمال السودان، بين دائرتي عرض ١٢ و ٢٢ شمال، وخطي طول ٢٢ و ٣٢ شرق (الخريطة ١). هذه المنطقة اليوم هي إحدى أكثر مناطق العالم جفافاً، إذ فيما عدا جيوب معزولة، تنعدم فيها أي مصادر مياه دائمة أو غطاء نباتي، الأمر الذي جعل الحياة فيها متعذرة تماماً.

وبفضل الجفاف فإنها تشكل اليوم وحدة بيئية، على الرغم من التباين في تضاريسها. فهي تتراوح في ارتفاعها ما بين دون سطح البحر، إلى نحو ٢٠٠٠م فوق سطح البحر. وتحتوي منخفضات في الفيوم والقطارة وسيوه؛ وواحات في الداخلة والخارجة وسليمة؛ وبحيرات وسبخات مائية في نبتة Nabta وطرفاوي؛ وأودية في شو واللقية؛ وأنهاراً قديمة في وادي هور؛ وهضاباً في الجرف الكبير؛ ومرتفعات جبلية في العوينات (الخريطة ١).

وعلى الرغم مما تعانيه اليوم من جفاف، فإن شرق الصحراء تمتعت في العديد من الحقب القديمة بمناخ رطب وممطر، وصل فيه منسوب الأمطار إلى ٥٠٠مم، تكونت على إثرها بحيرات وسبخات وأودية موسمية، بل وأنهاراً جارية (Wendorf and Schild 1998: 99 - 100).

في مثل تلك الظروف حظيت المنطقة بتباين في مناخها، وربما في عطاؤها البيئي. فالمناطق الشمالية منها تتأثر بمناخ البحر الأبيض المتوسط، بينما تخضع المناطق الجنوبية لتأثيرات مناخ السافنا. والمناطق التي تخضع لأمطار شتوية في الشمال، تتيح مناخاً أكثر رطوبة وأغنى عطاءً من المناطق الجنوبية، التي تستقبل أمطاراً صيفية وتعرض لدرجات حرارة أعلى. كذلك، فإن الجيوب الجبلية كانت تستقبل أمطاراً أكثر مما حولها بحكم ارتفاعها. وقد ساعدت طبيعتها على قلة التسرب، ما أسهم في تكوين بيئة غنية نسبياً، في

وآخرين، من أنصار الحتمية البيئية (Trigger 1989: 302-303).

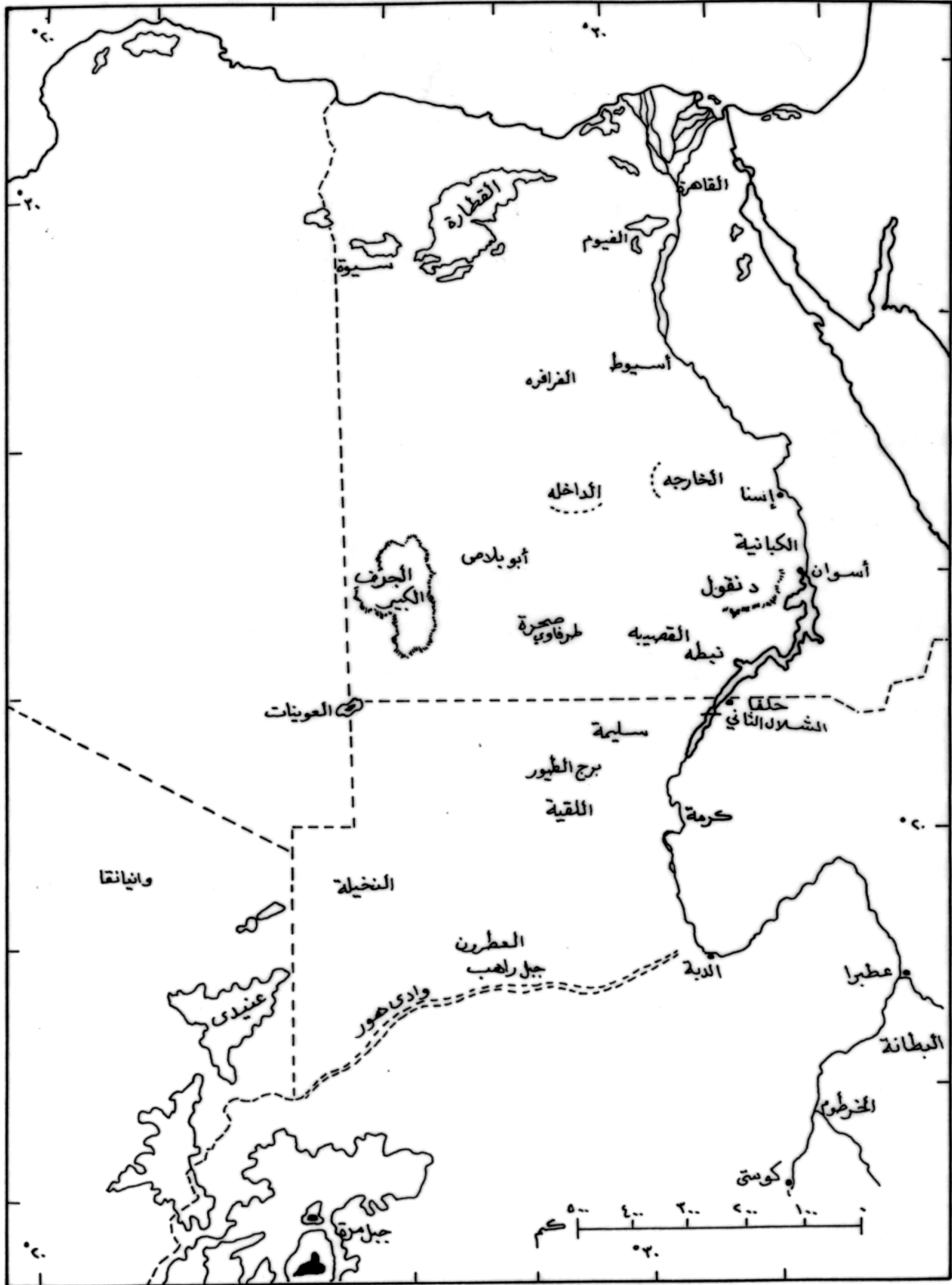
أوضحت هذه الدراسات وغيرها، ضرورة الإلمام بالظروف البيئية السائدة، بعد أن انقضى الوقت، الذي كان يُظن فيه أن محتويات الموقع الأثري كافية لتفسير كل الظواهر، والإجابة على كل التساؤلات الخاصة به. وتحولت دراسة البيئة من محاولة لرسم المسرح الجغرافي، الذي دارت فيه الأحداث الحضارية، إلى دراسة العوامل المؤثرة في المنظومة الحضارية. حقيقة إن المعرفة بالبيئة السائدة في منطقة ما، خاصة في حقب ما قبل التاريخ، ليست من الأمور المتيسرة دوماً؛ فقد يواجه الباحث بشح معلوماتي بالتفاصيل البيئية، كما توجد بعض العقبات التي تعترض الإلمام بدور البيئة حين يتداخل دورها مع عوامل أخرى في إحداث التغيير. غير أن تكامل الدراسات الأثرية والبيئية وارتكازهما على بعضهما، وعلي دراسات علمية أخرى، يجعل الأمر أيسر مما يبدو؛ خاصة مع ملاحظة الارتباط بين التحولات البيئية والتحولات الحضارية، في الكثير من مناطق العالم، وعلى مسار عدد من الحقب الحضارية؛ فنهاية العصر الحجري القديم الأسفل، مثلاً، ارتبطت بنهاية البلايستوسين الأوسط، كما ارتبطت بداية الهولوسين ببداية العصر الحجري الحديث والتحول إلى إنتاج الغذاء.

ذكر كل من بوترز وهانسن مرة عبارة تقول:

“It may ultimately be possible to correlate palaeoclimatic events as well as prehistoric cultures along the length of the Nile corridor”. (Butzer and Hansen, 1968: 7).

أي: "ربما يصبح من الممكن في الختام، الربط بين تقلبات المناخ القديم وحضارات ما قبل التاريخ على امتداد مجرى النيل".

وإذا جاز لنا أن نضيف إلى نهاية تلك العبارة "and the adjacent Sahara" (أي: والصحراء المجاورة) نكون قد لخصنا هدف هذا البحث. إذ بعد مضي نحو ثلاثة عقود على العبارة تلك، ونتيجة ما تمّ من أبحاث، توافر من المعلومات ما يسمح بخطوه في ذلك الاتجاه. إن التفكيك في مثل هذه



الخريطة ١: أهم مواقع حوض نهر النيل، ومنطقة شرقي الصحراء الكبرى.

إلا أن مواقع العصور الحجرية حظيت بالجزء اليسير من اهتمام الباحثين، حيث اختصرت التنقيبات على مواقع معزولة في البلدين، حتى كانت حملة إنقاذ آثار النوبة وما تبعها من أعمال، لتضع وادي النيل على الخارطة الأثرية لحقب ما قبل التاريخ. فقد شكّلت تلك الأعمال فهماً أعمق، ليس للدور الحضاري لنهر النيل خلال تلك الحقب فحسب، بل لتاريخ مجرى النهر وسلوكياته أيضاً.

### العصر الحجري القديم

تعود أقدم الأدلة الحضارية في النيل وشرق الصحراء، إلى العصر الأشولي الأوسط والأعلى، الذي يتزامن مع حقبة البلايستوسين الأوسط (نحو ١٠٠٠٠٠ - ١٣٠٠٠٠ ق.ج. = قبل الحاضر).

والمواقع الأشولية في مجملها مواقع سطحية، سواء تلك التي كشف عنها على النيل حول وادي حلفا والخرطوم (Arkell 1949a, Chemielewski 1968, Guichard 1965: 64, and Guichard 1965: 64)، أو تلك التي كشف عنها في شرق الصحراء، والتي تركزت في مناطق الخارجة، والداخلة، ودنقول، وكركور، وبيبرطفاوي، والعوينات، ووادي بخت، ووادي هور، وخلافها، وعلى السبخات القديمة وأطراف الأودية، مثل: الوادي العريض، والوادي المنخفض، وبيبر صفصاف (Safsaf) (الخريطة ٢)؛ التي كانت تتغذى من الأمطار المحلية، حيث وفرت غطاءً نباتياً من نوع السافنا الفقيرة، عاشت عليها حيوانات متوسطة وصغيرة الحجم، مثل تلك التي تعيش اليوم في شريط الساحل الأفريقي (Mchugh 1975: 32, Wendorf and Schild 1980: 182- 3, 226- 228, 243 - 247, Pachur and Kropelin 1987: 299). وشملت الأدوات فؤوساً حجرية، وأدوات ثنائية الوجه، وسواطير. وهي جميعها مصنّعة من مادة خام محلية، ما قد يعني محدودية الحركة والتنقل لهذه المجموعات -ربما لوفرة مرتكزاتهم الاقتصادية من صيد وجمع- وإكتفائهم بالمادة الخام المتوافرة حولهم. تعود تلك الأدلة في أقدم حالتها إلى أكثر من مليون سنة، وإن لم يتوافر تاريخ مؤكد لها. تزامنت مع نهاية هذه الحقبة الأشولية فترة جفاف، جفت

عطاياها النباتي والحيواني. أما الأودية، فقد توافرت فيها المياه عند هطول الأمطار، التي ترسّبت تحت السطح في شكل مخزون مائي هائل. وشكلت المجاري القديمة، مثل وادي هور، شريطاً نباتياً ذا عطاء حيواني ممتداً من مرتفعات عنبيدي في تشاد إلى النيل في شمال السودان، عبر منطقة هي اليوم إحدى أكثر صحارى العالم جفافاً.

عملت في هذه المنطقة، خلال النصف الثاني من القرن المنصرم، عدد من البعثات في مختلف فروع المعرفة (أثرية، وجيولوجية، وجيومورفولوجية ونباتية)، من مختلف المؤسسات الأكاديمية، نتج عنها كم كبير من المعلومات، عن الأحوال المناخية والبيئية والاستيطان البشري خلال حقب ما قبل التاريخ. وكشف عن مئات المواقع الأثرية، التي توزعت بين عصور ما قبل التاريخ، مثلما توزعت بين وهاد تلك المنطقة ونجودها.

وعلى الرغم مما أنجز من دراسات جيولوجية وجيومورفولوجية، فإن تاريخ نهر النيل في عصوره القديمة لا يزال محل خلاف، وإن ارتبط بأحداث سابقة لشق مجراه الحالي ليس من شك في أنها قد شكلت وجوده. ففي الوقت الذي يرى فيه بعض الدارسين أن نهري عطبرة والنيل الأزرق قد التحقا بمجرى النهر في نهاية حقبة البلايستوسين الأعلى، يرى آخرون أن الطمي، ذو الأصول الأثيوبية، المتراكم في أجزاء من مجراه، يشير إلى تاريخ قديم لنهري عطبرة والنيل الأزرق يتجاوز البلايستوسين ليصل، على الأقل، إلى العصر الثلاثي. أما خلال الحقبة المتأخرة من البلايستوسين الأعلى والهولوسين، فإن تاريخ النهر يصبح أكثر وضوحاً بفضل سلسلة من نتائج التاريخ الكربوني، وعبر دراسات جيومورفولوجية تمت في منابعه، وفي أواسط السودان، ومنطقة النوبة ومصر. وخلال تاريخه الطويل، شهد فترات انحسار وجفاف، كما شهد فيضانات عارمة وترسبات، نتيجة تحولات مناخية متباينة في منابعه وحول مجراه (Williams 231- 222 and Adamson 1982: 222- 231)؛ الأمين ١٤٢٢ هـ: (١٠ - ١٢).

وعلى الرغم من الأعمال الأثرية الهائلة، التي شهدتها منطقة النيل في مصر والسودان، على مدار القرن العشرين،



مخلفاتها العظمية في المواقع (Wendorf and Schild 1980: 229- 230, 256, Wendorf et, al. 1991: 124, Gautier 1993: 333) وهي كائنات لا تتوافر اليوم بشكل طبيعي شمالي شريط السافانا، الغنية، أي نحو ١٠٠٠ كلم جنوب الصحراء. فقد كان بمقدور هذه الحيوانات الحركة بسهولة، إذ إن منطقة الصحراء بكاملها كانت قابلة للعيش. وفي الفترات التي يجف فيها المناخ قليلاً، تعود تلك الحيوانات إلى ضفاف البحيرات، ثم ترحل عنها إلى السهول المحيطة حين تتحسن الأحوال فيها.

أظلت هذه الحقبة المطيرة الحضارة الموسستيرية، بمختلف تقنياتها، وحضارة بير الطير (Aterian)، اللتين كشف عن مخلفاتهما في شرقي الصحراء، في بير طرفاوي وبير صحراء ضمن مواقع أخرى عديدة تنتشر على امتداد الصحراء (Wendorf et. al., 1993: 108). حوت المواقع تعاقباً طبقياً وكشفت في طياتها عن أدوات الشظايا والأدوات اللفلوزية، التي ميزت هذه الحقبة، إلى جانب المناجل والمثاقب وخلافها. وقد صنعت الأدوات من مختلف أنواع المادة الخام، ومنها ما هو غير متوافر قرب المواقع (Wendorf and Schild 1980: 255 - 256) ما يعكس حرية واسعة في الحركة، ومن ثم قابلية بيئة الصحراء للتجوال. كذلك، كُشف عن مواقع تحوي أدوات مشابهة في برج الطيور، إلى الجنوب الغربي من سليمة (Schuck 1993: 243) (الخريطة ٢).

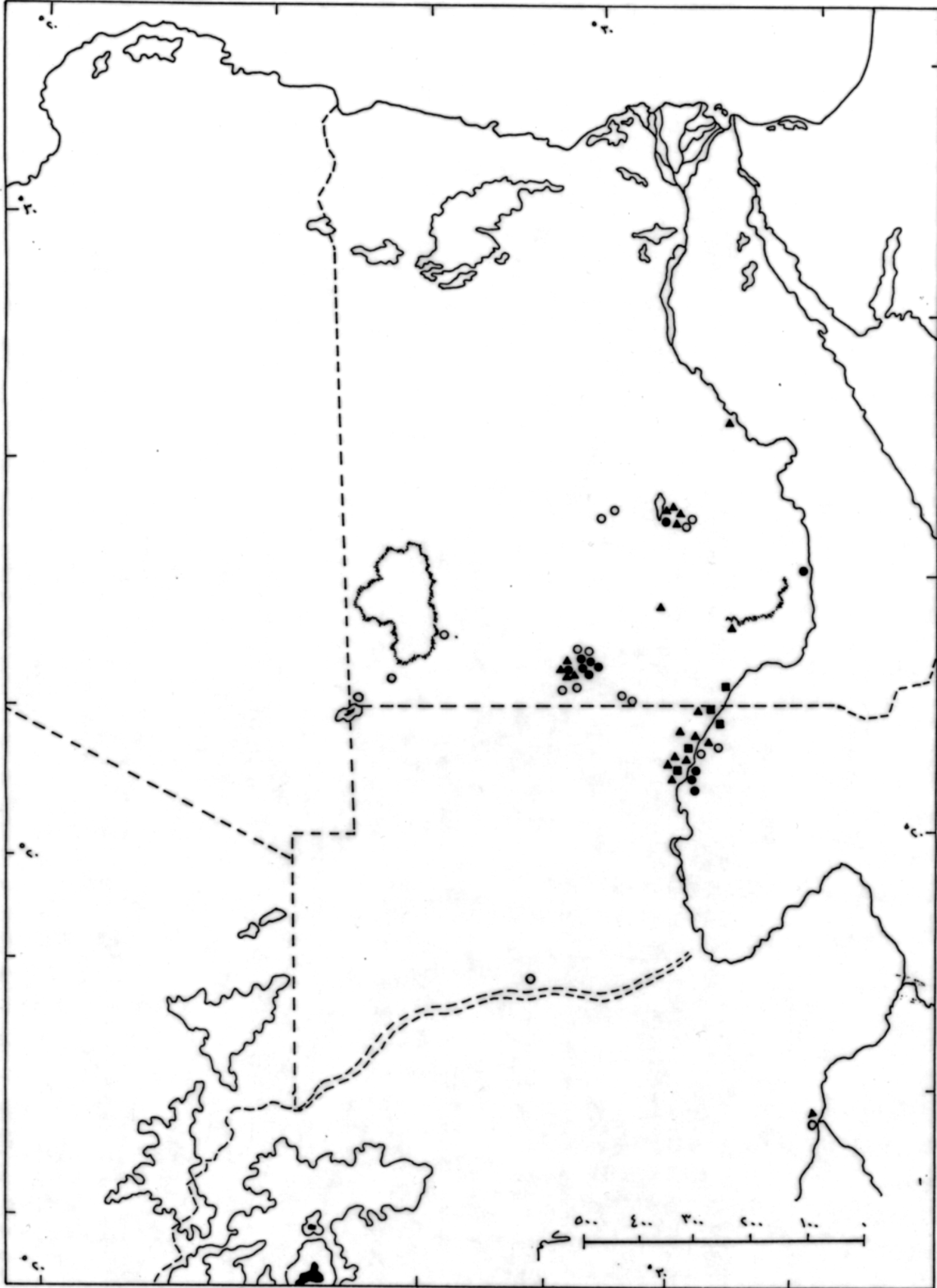
وعلى النيل كشفت بعض المواقع، إلى جانب حضارة خور موسى، عن حضارات موسستيرية، تباينت فيها الأدوات بين تركيز على المكاشط والمناجل (Marks 1968; Elamin 197- 196: 1981)، بينما أظهرت مواقع أخرى تشابهاً في أدواتها بالأدوات السنقوانية (Sangoan)، التي عُرفت من يوغندا، وانتشرت في أفريقيا الأستوائية، (Guichard and Chmielewski 1968: 146, Guichard 168: 184) وتميزت ثالثة بأدوات حضارة بير الطير الصحراوية (Hassan 1980: 428).

ودعماً لدراسات سابقة أجراها ساندفورد وآركل، وواصلتها كاتون طومسن وغاردنر، أشار حسن إلى أن بحيرة الفيوم، التي تتغذى من النيل، كان منسوبها خلال حقبة العصر

خلالها الأودية والسبخات، وانخفض منسوب المياه السطحية إلى طبقات أعمق مما كانت عليه، ومما هي عليه اليوم؛ ومن ثم انحسر الغطاء النباتي والحيواني، وسادت بيئة فقيرة وجافة. وقد لوحظ أن المواقع الأشولية في منطقة سليمة وبرج الطيور، مغطاة بطبقات كثيفة من الرمال إلى جانب أن الأدوات تُظهر آثار تعرية، ما يوحي إلى تعرض المنطقة لظروف جفاف حادّة، أعقبت نهاية العصر الأشولي واستمرت لفترة طويلة (Schuck 1993: 239). وقد فصلت هذه الفترة الطويلة نسبياً بين العصر الأشولي المتأخر وبداية العصر الحجري القديم الأوسط، أفرغت خلالها الصحراء ربما من سكانها، عدا بعض المواقع المعزولة حول المنخفضات الصحراوية، وهجرت على إثرها المجموعات السكانية المنطقة إلى مصادر المياه الدائمة، شرقاً نحو النيل، وربما جنوباً نحو شريط السافانا، وشمالاً نحو ساحل البحر المتوسط.

ولعل ذلك ما يفسر توجه الصناعات الأشولية المتأخرة على النيل، نحو التقنية اللفلوازية، من جهة، واتجاه الفؤوس للشكل الرمحي (Lanceolate)، من جهة أخرى، وهي سمات ظهرت مع بداية العصر الحجري القديم الأوسط، في الوقت الذي تغيب فيه هذه الظواهر بشكل واضح في الصحراء، خلال تلك الحقبة، انظر: (Guichard, op. cit.: 79- 182: 84, Wendorf and Schild, 1980).

أعقبت فترة الجفاف تلك فترة مطيرة مع بداية البلايستوسين الأعلى، نتجت عن تحول نسبي في اتجاه الرياح الموسمية الجنوبية أدى إلى ارتفاع في هطول الأمطار، التي وصل منسوبها إلى ٥٠٠ مم في الصحراء، ما أدى إلى تكون بحيرات كبيرة دائمة، وسبخات وينايع وأودية، كشف عنها في بير طرفاوي وبير صحراء، على بعد نحو ٤٠٠ كلم غرب أسوان (Wendorf and Schild 1996: 305). فأدت وفرة المياه في الصحراء وارتفاع منسوب المياه السطحية، إلى سيادة ظروف بيئية ملائمة للعيش حيث توافر غطاء نباتي من نباتات السافانا، ووفرة في أنواع وكم الحيوانات، شمل: حيوانات وحيد القرن والجاموس المنقرض، والجمل المنقرض، والحمار الوحشي، والزراف، والتمساح، وبعض الغزلان، وغيرها من أنواع حيوانية كبيرة ومتوسطة الحجم، كشف عن



○ أشولي      ▲ موسستيري      ● بير الطير      ■ خور موسى .

الخريطة ٢: بعض مواقع العصرين: الحجري القديم الأسفل، والأوسط (١٠٠٠٠٠٠-٤٠٠٠٠٠ ق. م.).

الصحراء (Camps 1975)، التي يبدو أنها ظلت خالية من السكان حتى بداية الهولوسين.

كذلك، فإن الأعمال الأثرية، التي جرت شرقي الصحراء، من سيوه شمالاً حتى وادي هور جنوباً، تشير إلى خلو المنطقة من مستوطنات تؤرخ إلى فترة الجفاف تلك. فالأدلة من سيوه والقطارة والجرف الكبير والعيونات وغيرها (Hassan 1978, 1976)، تؤكد سيادة فترة الجفاف هذه.

وعلى النيل كشفت الأعمال الأثرية في صعيد مصر، شمال أسوان، عن توقف نشاط الأودية، التي تصب في النيل، عند الضفة الغربية في سهل الدشن، ومنطقة قنا، ودير الفاخوري (Hassan 1974: 14; Lubell 1974: 3-4). كذلك، يوضح الدليل من وادي الكبانية، قرب أسوان، أن الكثبان الرملية سدت مجرى الوادي نحو ١٨٠٠٠ - ١٦٠٠٠ ألف ق.ح. وتوقفت مساهمة الوادي في جلب المياه إلى مجرى النيل، خلافاً لما كان عليه الحال في الفترات المطيرة (Wendorf and Schild 1980: 235).

خلال هذه الفترة (١٨٠٠٠ - ١٠٠٠٠ ق.ح.) كُشف في سهل كوم أمبو، وعلى شريط ضيق شمالي أسوان لا يتعدى ٥٠ كلم، عن عدة حضارات متباينة، تشكل في مجموعها خريطة حضارية سيفسائية تجمّع فيها الكثير من «الحضارات»، التي تحمل تقنيات حجرية متباينة، على الرغم من أنها كانت تستغل بيئة واحدة (Phillips 1973: 98-99)، كان من بينها حضارات: السبيل والسلسلة والمنشية والكبانية والفاخوري وأدفو والعافية وأسنا وخلافها (Wendorf and Schild 1989: 804-818) (الخريطة ٣).

وفي الفترة ذاتها تجمّعت، كذلك، في منطقة جغرافية محدودة إلى الجنوب من أسوان، وحتى الشلال الثاني في شمالي السودان، عدد من «الحضارات»، وإن لم تكن متعاصرة تماماً ولكنها متقاربة زمنياً، مثل رصيفاتها الشمالية. وقد شملت حضارات: جمى وحلفا وبلانة وعبد القادر، وخلافها (الخريطة ٢)؛ وارتكزت صناعاتها على إنتاج الشظايا، وبعضها على الشفرات، قزمية وغير قزمية، وتباينت فيها أنواع المادة الخام، بين الشيرت والعقيق، واختلفت نسب الأدوات وأنواعها، التي تميّز كل حضارة (Wendorf 1968).

الحجري القديم الأوسط قد وصل إلى نحو ٣٤ - ٤٠م فوق سطح البحر، كما أشار إلى التوافق بين ارتفاع منسوب بحيرة الفيوم وبحيرة تركانا (رودلف)، في كينيا، التي تتغذى من مياه الأمطار، التي تهطل على الهضبة الأثيوبية (Hassan 1986: 495).

شهدت الحقبة الأخيرة من البلايستوسين الأعلى بداية فترة جفاف، لم تعرف المنطقة لها شبيهاً خلال تاريخها، استمرت حتى بداية الهولوسين، أُسدل خلالها الستار في الصحراء على الحضارات الموسيترية، وحضارة بير الطير، وخلافها، وبلغت ذروتها خلال الفترة الممتدة بين ٢٠٠٠ - ١٢٠٠٠ ق.ح. جاءت الأدلة على حقبة الجفاف تلك عبر وسائل طبوغرافية وآثرية، مدعومة بنتائج تأريخ الكربون - ١٤. «بحقبة بلانة/ مصمص وحقبة صحابة/ دراو (Wendorf and Schild 1980: 234)، فقد سادت تلك الحقبة الجافة، بوجه عام، لنحو ٦٠ ألف سنة، من ٧٠٠٠٠ - ١٢٠٠٠ ق.ح.، وإن تخللتها فترات مطيرة قصيرة.

خلال هذه الفترة شحت الأمطار نسبة لتحول في اتجاه الرياح، وسادت حالة تصحر تامة اختفت خلالها البحيرات، وجفّت السيخات، وانقطع جريان الأودية، واختفى الغطاء النباتي والحيواني. وزحفت الحدود الجنوبية للصحراء إلى مدى أبعد كثيراً عن حدودها الحالية، وتقهقرت حدودها الشمالية كثيراً نحو ساحل البحر الأبيض المتوسط، أي بما مقداره نحو ٥٠٠ كلم في كل اتجاه عن حدودها الحالية (Petit- Maire 1988: 20; Grove 1993: 34; Ser- (vant and Servant 1972: 88).

تشهد بذلك عدة دراسات من شمال أفريقيا، وشرق الصحراء، ووادي النيل. فالأدلة من شمال أفريقيا تشير إلى تمركز الاستيطان قرب الساحل، بدءاً من نحو ٢٢٠٠٠ ق.ح. تأتي تلك الأدلة من حضارات وهران والأبرومورسيه وحضارة الضبعة، في مواقع: تمرحات، وحقفة الضبعة، وهواء الفطايح، وغيرها، حيث اعتمدت تلك الجماعات في معيشتها على الصيد البري والبحري والجمع (Close and Wendorf 1989: 42-49). ويلاحظ غياب هذه الحضارات جنوباً في

1053-1046).

ذلك (الخريطة ٢). غير أن التنقيبات في سهل البطانة شرقي السودان، كشفت عن مواقع حوت صناعات حجرية، ارتكز بعضها على إنتاج الشظايا وبعضها الآخر على إنتاج الشفرات، التي ربما تورخ لنهاية البلايستوسين (-Elamin 1987: 33-46).

### العصر الحجري الحديث

بنهاية البلايستوسين في نحو ١٢٠٠٠ ق.ح، وبداية حقبة الهولوسين، أخذت الأحوال المناخية تدور في الاتجاه الآخر؛ فارتفعت درجة الحرارة بعد فترة البلايستوسين الباردة، وتقهقر الجليد نحو القطب، وارتفع منسوب المياه في البحار. وبدأت تسود فترة مطيرة في الصحراء، كشفت عنها عدة حقول معرفية. ومرة أخرى تهطل الأمطار بغزارة على المنطقة، لتغذي الأودية والبحيرات والسيخات، ويرتفع منسوب المياه تحت السطح، وتتراكم طبقات الطمي في القيعان، وتتماسك الكثبان الرملية السابقة، وتتقارب خطوط المطر الشمالية والجنوبية، وتسود بذلك بيئة غنية بعطائها النباتي والحيواني، لتتحصر الصحراء في شريط ضيق للغاية.

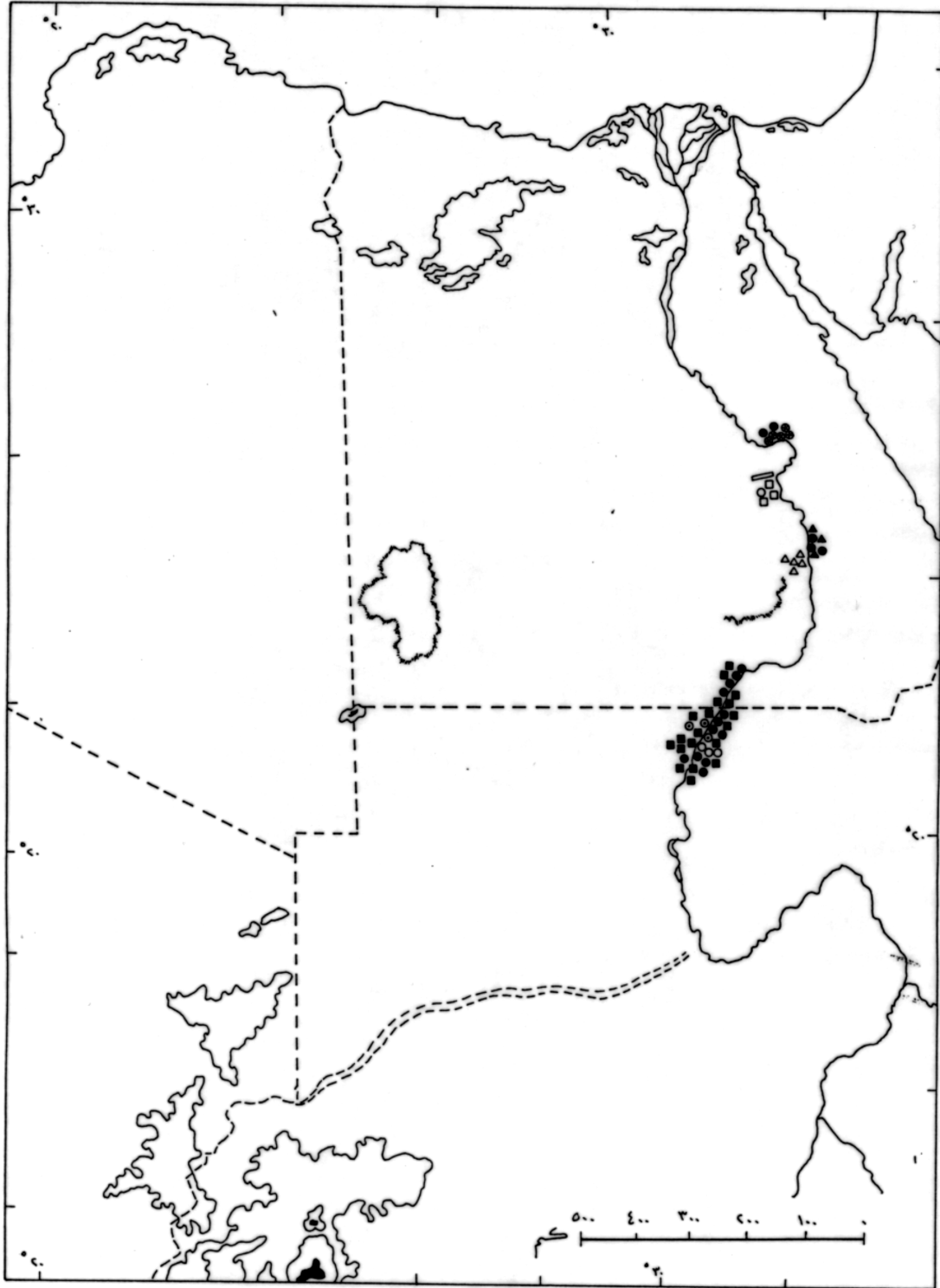
ففي منخفض سيوه والقطارة في شمالي الصحراء سادت فترة مطيرة خلال حقبة الهولوسين الأسفل، نحو ٩٠٠٠ ق.ح. كشفت عنها مخلفات نباتية، وملاحظات جيومورفولوجية (-Hassan 1978: 146-148; Neu-mann 1993: 158-159).

وفي واحة الخارجة، ارتفع منسوب المياه السطحية، وانتشرت السيخات، وتوافرت بيئة غنية حوت غطاء نباتياً سمح لحيوانات السافنا، مثل الزراف والغزلان، بالوجود في الواحة وحولها. وهناك استقرت بعض الجماعات، التي صنعت فخاراً غير مزخرف، وأدوات حجرية سيطرت عليها المناجل والمكاشط واختفت بينها الشفرات (Wenorf and Schild 1980: 189-203, 236-241). وفي أبو بلاص، جنوبي الداخلة، سادت ظروف بيئية مشابهة، لتلك التي عرفتها منطقة الواحات خلال حقبة الهولوسين. وقد عُثر في أحد المواقع على مخلفات عظمية للزراف تورخ إلى نحو ٩٠٠٠ ق.ح. (Kuper 1993: 221)، وسط أدلة نباتية تشير إلى

لا شك أن النسيج، الذي تمثله ثقافات متباينة في تقنياتها، محصورة جغرافياً، في رقعة محدودة، لا تحمل في معظمها خصائص محلية، أو جذوراً محلية، عاشت تحت ظروف مناخيه قاسية وشح بيئي، هو نسيج يصعب تفسيره بشيء سوى كونه نتيجة لنزوح جماعات بشرية، جاءت تحمل ثقافتها من بيئات أخرى. ونسبة لمحدودية عطاء البيئة النيلية في فترة الجفاف تلك، كان لا بد لهذه المجموعات من أن تتنافس على قلة ذلك العطاء. وتمثل ذلك الصراع في قمة عنفوانه حول مصادر العيش، وانعكس في عراقك بين تلك الجماعات مثلتها مقبرة جبل الصحابة، حيث أوضحت الهياكل العظمية البشرية والسهم الحجرية الملحقة بها، أن أصحابها لقوا حتفهم نتيجة الاقتتال بين تلك الجماعات حول مصادر العيش (Wendorf 1968: 994).

ومن أواسط السودان يأتي دليل آخر من النيلين الأبيض والأزرق، جنوبي الخرطوم، إذ كشفت دراسة جيومورفولوجية ونباتية عن انخفاض كبير في منسوب النيل الأزرق، خلال الفترة من ١٧٠٠٠-١٢٠٠٠ ق.ح. أما النيل الأبيض فقد تعرض لانقطاع، ربما شبه تام، خلال تلك الفترة، ولم تعد بحيرة فكتوريا، المصدر الرئيس لمياه النيل الأبيض، تسهم في تغذيته. وقد تراكمت الرمال حول مجرى الوادي جنوبي الخرطوم وزحفت الكثبان الرملية لتسد بعض أجزاء المجرى، وتراجعت الأحزمة النباتية نحو ٤٥٠ كلم جنوب حدودها الحالية، لتصل الحدود الجنوبية للصحراء إلى نحو دائرة العرض ١٠ شمال (Williams and Adamson 1974: 584-586; Adamson et. al., 1982, 177, 190 -9-193; Wickens 1982: 38).

وخلافاً لما هو متوقع، ولما كشفت عنه الأعمال الأثرية بين الشلالين الأول والثاني، فإن المنطقة الممتدة على النيل بين الشلال الثاني والخرطوم (الخريطة ١)، لم تكشف عن أية مواقع أثرية تعود إلى فترة الجفاف، التي شهدتها نهاية البلايستوسين، أيأ كانت الأسباب المتسببة في تلك الظاهرة: سواءً أكانت خلو المنطقة من السكان وقتها، أم تدمير المواقع، أم غياب السمات التقليدية المميزة لتلك الحقبة، أو خلاف كل



■ عبدالقادر    △ الكمانية    • السبيل    • حلفا    • عافية .  
 □ إسنا    • جمى    = فاخوري    ▲ سلسلة .

الخريطة ٣: بعض مواقع العصر الحجري القديم الأعلى والأعلى المتأخر (٢٠٠٠٠-١٠٠٠٠ ق.م.).

حجرية تحوي أحجاراً ضخمة، ومقابر دفنت فيها أبقار، وأنصافاً حجرية، وأساسات أكواخ، ومعالم فلكية، ما يشير إلى مجتمع طبقي ذي خواص إدارية، ويحمل معتقدات دينية ويشكل مركزاً حضارياً (Wendorf et. al. 1997: 92; Mckim et. al. 1998: 488 - 491).

وتؤكد الأدلة من القصبية (Bir Kiseiba) وصفصاف، ارتفاع معدل الأمطار خلال فترة الهولوسين الأسفل والأوسط (نحو ١٠٠٠٠ - ٧٦٠٠ ق.ح.)، حيث ظلت البحيرات والسبخات تتلقى مياهها من الأمطار والأودية المحلية. في تلك البيئة كشف عن ١٣٠ نوعاً من النباتات، من بينها الذرة البري والشعير البري. وكان البقر والغزلان أكثر الحيوانات توافراً (Wendorf and Schild 1998: 100-106; Schild and Wendorf 2001: 23).

تدعم سيادة الفترة المطيرة تلك، أدلة أخرى من مواقع الوادي الأخضر، والجرف الكبير، وجبل العوينات، ووادي بخت، حيث كشفت المواقع هناك عن مستوطنات تعود إلى حقبة العصر الحجري الحديث، حوت شفرات ورعوس سهام ومكاشط وفخاراً، تباينت فيه الشوائب بين عضوية وغير عضوية، ذا سطح أملس. وقد زخرف القليل من الفخار بخطوط متوازية، متصلة ومنقطعة (McHugh 1975: 52-54). وإلى الشمال الشرقي من الجرف الكبير، عُثر على مواقع أرخت إلى (٨٧٠٠ - ٨٢٠٠ ق.ح.) حوت أدوات قزمية، ورعوس سهام، ومخارز، وفخاراً يحمل زخارف شبيه بتلك، التي عرفها فخار الخرطوم (Kuper 1993: 214 - 217) (الخريطة ٤).

وفي مراحل لاحقة، خلال الحقبة المتأخرة من العصر الحجري الحديث، تحولت معظم الأدوات إلى شطايا كبيرة الحجم. وفقد الفخار تلك الأنواع المبكرة من الزخرف، ليصبح أشبه بفخار حضارة عبكة، وحضارة المجموعة «أ» على النيل. كذلك، يلاحظ أن التاريخ الكربوني لتلك المواقع يتركز في معظم الحالات، شأن بقية مواقع شرقي الصحراء، بين (٦٤٠٠ - ٥٢٠٠ ق.ح.)، (Schon 1996: 120).

وتشير الرسومات الصخرية، التي تؤرخ إلى تلك الحقبة، إلى وجود حيوانات مثل: الزراف والوعول والغزلان والأبقار

غطاء نباتي غني في الكم والكيف (Neumann 1993: 158 - 159).

كذلك، كشف المسح في منطقة نيبته (الخريطة ١) عن العديد من السبخات، التي تؤرخ إلى أن بداية الهولوسين نتجت عن ارتفاع هائل في تساقط الأمطار محلياً وجريان الأودية، وتكوّن البحيرات، ونمو طبقة نباتية من أشجار وحشائش حول مصادر المياه، وتوافر حيوانات كشف عن مخلفاتها، مثل: البقر الوحشي والخنزير البري والنعام والغزلان (Wendorf and Schild 1980: 236).

تعرضت منطقة نيبته، أكثر من أي منطقة أخرى في شرق الصحراء، لأعمال أثرية مكثفة كشفت عن عدد من المواقع، التي تركزت حول السبخات والبحيرات. وقُسمت مواقع العصر الحجري هناك إلى ثلاث مراحل (Wendorf and Schild 1998: 100-107): سادت المرحلة الأولى خلال الفترة (١٠٨٠٠ - ٨٩٠٠ ق.ح.)، وفيها تركزت المواقع على التلال، وشملت أدواتها المكاشط والشفرات وأدوات هندسية تحمل خصائص العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر، والقليل من الفخار. وارتكز اقتصادهم على جمع الذرة والدخن البري وصيد الأبقار. وفي نهاية المرحلة ظهر عندهم الفخار ذو الخطوط المموجة المنقطعة، الذي ظهر في حضارة الخرطوم في الألف التاسع ق.ح. (Wendorf and Schild 1998: 100 - 104, Arkell 1949b). ويرى المنقبون أن هذه الجماعة وفدت، في بداية الهولوسين مع تحول بيئة الصحراء، من مكان ما، ربما من المنطقة بين الشلالين الأول والثاني.

وفي المرحلة الثانية (٨٣٠٠ - ٧٦٠٠ ق.ح.)، التي أعقبت فترة جفاف نسبي قصيرة، سادت الأبقار المستأنسه، في وقت سابق للمعرفة بها في وادي النيل وفي بلاد الشام. وقد ظل الذرة البري (حشيشة السودان) (Sorghum)، أحد النباتات المستغلة في الغذاء ليشكل في هذه المرحلة أكثر أنواع البذور استقلالاً (Wasylikowa et. al. 1997: 936)، وعثر على أساسات لمخازن وموقع احتفالات، وظهر الماعز والضأن المستأنس. وسادت المرحلة الثالثة خلال الفترة من (٧٥٠٠ - ٦٢٠٠ ق.ح.)، وأصبح الفخار فيها مصقولاً، وعرفت منشآت

والقصبية، وتلك التي عرفتها مواقع الداخلة، خلال ما عرف بالفترة المبكرة والوسيط من العصر الحجري الحديث. فالفخار يظهر خصائص مشتركة، والنسيج يحوي شوائب رملية، والأواني صغيرة الحجم، والزخرف يتميز بخطوط مموجة (wavy)، ومتعرجة (zigzag)، (Schuck 1993: 245-246)، من ذلك النوع الذي عُرف بـ "فخار الخرطوم".

وفي العطورون، نحو ٩٠ كلم إلى الشمال من وادي هور، عُثر على عظام زراف أرخت لنحو ٧٣٧٠ ق.ح. بجانب بحيرة أرخت لنحو ٩٢٠٠ ق.ح. وفي واحة النخيلة عثر على عظام لوحيد القرن أرخت لنحو ٧٨٠٠ ق.ح. (Kuper 1995: 299-300; Pachur and Kropelin 1987: 129).

ليس من شك، الآن، في أن وادي هور كان أحد فروع نهر النيل، خلال حقبة الهولوسين (Gabriel et. al. 1985: 106) حيث كان يتغذى من مصادره العليا في مرتفعات دارفور وتشاد، إلى جانب الأمطار، التي تهطل عليه، مشكلاً شريطاً نباتياً يمتد لنحو ٧٠٠ كلم، لا يتوافر حالياً سوى على مسافة ٦٠٠ كلم إلى الجنوب من موقعه الحالي (Neumann 1993: 163). كذلك، كشفت المخلفات العظمية حول الوادي، وجود مخلفات عظمية لحيوانات السافنا، مثل: البقر الوحشي والأفيال ووحيد القرن والزراف وفرس البحر، إلى جانب البقر المستأنس، تؤرخ إلى الفترة بين ٩٢٠٠ - ٧٨٠٠ ق.م.

وعلى ضفاف الوادي تنتشر العديد من مواقع العصر الحجري الحديث، التي تحوي أدوات حجرية وفخار، تمثل في قطع صغيرة ذات بنية جيدة، وسطح أملس، وشوائب غير عضوية، وتبدو عليه آثار التعرية. ويحوي الزخرف تلك الأنواع، التي عرفها موقع الخرطوم من خطوط مموجة ومتقطعة وخطوط متعرجة متقطعة (Keding 2000: 91; Jesse 2000: 83). وقد توافرت في المواقع عظام حيوانات ثديية، من أفيال وفرس البحر وعظام أسماك، إلى جانب عظام أبقار مستأنسة. وقد أرخت المواقع إلى الفترة بين ٨٠٠٠ - ٦٠٠٠ ق.ح. (Kropelin 1993: 254; Pachur and Kropelin 1987: 299-300).

وفي الأجزاء الوسطى من الوادي، قرب جبل راهب، كُشف عن موقع جبرونة، الذي يغطي مساحة تصل إلى ١ كلم<sup>٢</sup>،

والنعام (Mchugh 1975: 57). وتؤكد ذلك الأدلة في وسط الصحراء، حيث غدَّت مياه الأمطار، في نحو (٨٥٠٠ ق.ح.) الأودية والسبخات، في عنيدي وفزان وتبستي وهقار ومنيت، فوجدت حيوانات السافنا مثل: الأبقار والأفيال والجاموس والزراف والغزلان (Gabriel 1976: 36; Mal-ey 1977: 5573-578).

وإلى الجنوب من نبتة، أظهرت صور الأقمار الاصطناعية وجود أودية قديمة في منطقة سليمة عاودت نشاطها خلال حقبة الهولوسين، فارتفع منسوب بحيرة سليمة (Haynes 1987: 73)، وتكونت سبخات، وجرت الأودية إلى الغرب من سليمة، فيما يعرف بطبقة الرمال في منطقة وادي شو، ووادي سهل، وبرج الطيور، حيث ساد غطاء نباتي من نباتات السافنا (Gabriel and Kropelin 1984: 295; Neumann 1993: 160 - 162).

وفي أحد مواقع برج الطيور كُشف عن أدوات حجرية، تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط، تعلوها طبقة تعود إلى العصر الحجري الحديث، تؤرخ للألف السابع ق.ح.، حوت أدوات قزمية وشفرات وفخار، من أنواع مشابهة لما عُثر عليه في: اللقية، ووادي شو، ومواقع أخرى في برج الطيور، تؤرخ جميعها إلى الألف السابع وبداية الألف الخامس ق.ح. (Schuck 1993: 243). ويكشف هذا الموقع، حسب تعاقب طبقاته (Stratigraphy)، الانقطاع الاستيطاني بين نهاية العصر الحجري القديم الأوسط وبداية العصر الحجري الحديث، في شرقي الصحراء.

ومن بين الظواهر التي عرفتها هذه المنطقة، أشكالاً حجرية تمثلت في دوائر من أحجار صغيرة تحوي القليل من الفحم والرماد، وقطعاً من قشرة بيض النعام. تناثرت هذه الدوائر في منطقة سليمة ووادي شو. وقد أرّخ معظمها إلى الفترة التي سبقت ٥٠٠٠ ق.ح. وهي مواقع للنار استخدمها رعاة العصر الحجري الحديث، خلال تجوالهم وراء قطعانهم في الصحراء (Gabriel 1986, 1984: 394). وربما يؤكد اختفاؤها بعد ذلك التاريخ، جفاف الصحراء التي لم تعد قادرة على توفير متطلبات تلك القطعان.

وتشارك هذه المواقع في الكثير من معثوراتها مواقع نبتة

حضارات الصحراء الأبقار المستأنسة وصناعة الفخار، لم تكشف الحضارات النيلية عن أي دليل للاستئناس الحيواني أو النباتي، خلال هذه الفترة.

وعلى امتداد المنطقة من الدلتا إلى الشلال الثاني، لم تعرف حقبة الهولوسين الأوسط والأعلى حضارات العصر الحجري الحديث إلا بعد فترة جفاف قصيرة أعقبت (7000 ق.ح.)، (Wendorf and Schild 1976: 225). ففي جنوبي غرب الدلتا يحتل موقع مرمدة بنى سلامة مساحة واسعة، ويحوي جدراناً لبيوت بنيت من طوب غير محروق مخلوط بالتبن، وأساسات أكواخ ومخازن ومقابر في داخل المستوطن، دفن فيها الموتى بشكل قرفصائي. وقد ارتكز الاقتصاد جزئياً على القمح والشعير، وأرخ الموقع إلى نحو ٥٦٠٠ ق.ح.

أما أقدم دليل على ظهور بعض سمات العصر الحجري الحديث في شمالي مصر، فقد عرف من مواقع الفيوم، التي أرخت إلى نحو ٦٥٠٠ ق.ح. حيث عكست أوجه شبه في صناعاتها الحجرية مع المجموعات الصحراوية (Wendorf and Schild 1984: 404-428). وتميزت الأدوات الحجرية المرتكزة على الشظايا، برؤوس سهام وفؤوس مصقولة. وكشفت عن فخار غير مزخرف، واستغلال محدود للقمح والشعير المستأنس، إلى جانب القليل من الحيوانات المستأنسة، والعديد من الحيوانات البرية، التي شكلت الأساس في غذائهم (Catan- Thompson and Gardner 1934; Wendorf and Schild 1976: 370-381). أما موقع العمري قرب حلون، الذي يؤرخ إلى نحو (٦١٠٠ ق.ح.) (Hassan 1985: 105)، فقد حوى نحو مئة كوخ مستدير شملت مخازن ومواقد للنار، حيث دفن السكان موتاهم داخل المستوطن في وضع قرفصائي.

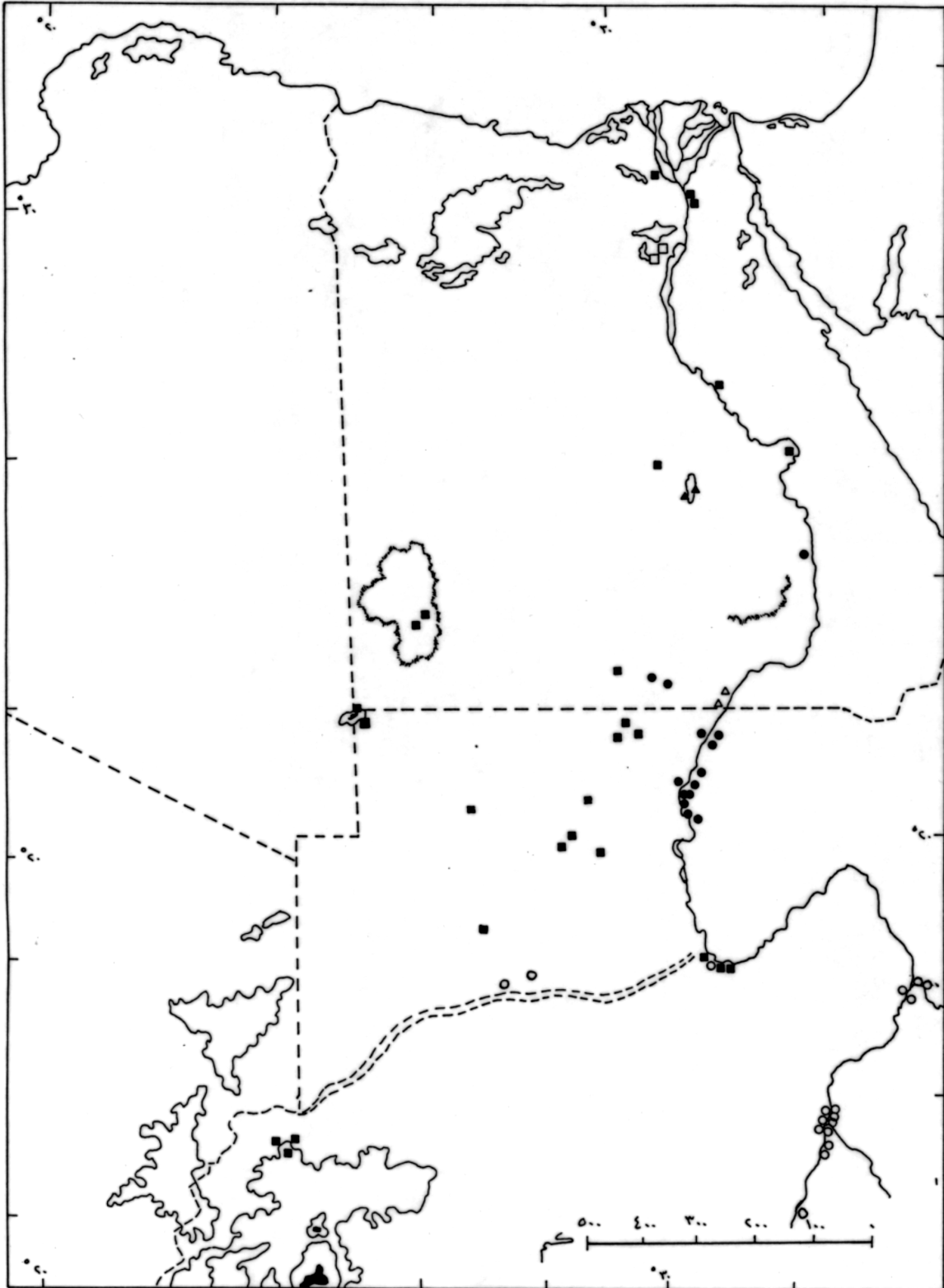
ونسبة لعدم وضوح جذور محلية لحضارة مرمدة، فقد عزاها بعض الدارسين لجماعات قيل إنها وفدت من الشمال والشرق، ويعني بذلك جنوبي شرق آسيا (Hayes 1964: 176-175). وكذلك الحال لحضارة الفيوم، إذ تحت تأثير الأفكار الانتشارية ذهب بعض الباحثين بخصائصها الحضارية إلى أصول آسيوية (Arkell 1975:18)، في وقت لم يجد

ويبلغ عمق التراكم فيه مترين تتركز فيهما الأدوات الحجرية، وأدوات الطحن، والفخار، والمخلفات العظمية (Keding 1993: 372) (الخريطة ٤).

وفي الأجزاء الجنوبية من وادي هور، عثر على مواقع تعود إلى نحو ٥٠٠٠ ق.ح. حوت أنواعاً من الفخار، زُخرف بإشكال هندسية يشابه ما عثر عليه في بعض مواقع الأجزاء الوسطى من الوادي، وكذلك ما عثر عليه إلى الغرب من وادي هور في بركو وعنيدي (Mohammed Ali 1982: 98-104). ويدعم ذلك، الرسومات الصخرية في عدد من المواقع حول وادي هور، حيث تظهر حيوانات السافانا، كالزراف والأفيال ووحيد القرن والبقر الوحشي والغزلان والأبقار المستأنسة (ibid 1982: 105-108).

انعكست الظروف المناخية، التي شهدتها بداية الهولوسين، على نهر النيل وفروعه. فقد ارتفع منسوب المياه في بحيرات وسط وشرق أفريقيا حيث منابع النيل، نتيجة للزيادة الهائلة في هطول الأمطار. ومن ثم زاد منسوب المياه في النيل إلى نحو ثلاثة أضعاف ما هو عليه اليوم. وشهد حوض النيل فيضانات وترسبات من الطمي. وتشير الدلائل من الفيوم، شمالي وادي النيل، إلى فترة مطيرة، وارتفاع في منسوب البحيرة خلال الهولوسين الأسفل (- Hassan 1986: 485). وتؤكد ذلك الدلائل من النيل الأبيض، الذي جدد سريانه بعد أن عاود اتصاله ببحيرة فكتوريا، مع بداية الهولوسين، وغطى الطمي الكثبان الرملية، التي تراكت على ضفتي النهر (Williams and Adamson 1974: 585). خلال حقبة الهولوسين الأسفل، عرفت الأجزاء الشمالية والوسطى من النيل، شمالي الشلال الثاني، جماعات مارست حضارات العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر، مثل: حضارات قارون في منخفض الفيوم، التي تؤرخ إلى نحو ٧٥٠٠ ق.ح.، وحضارة الكاب في صعيد مصر وتؤرخ إلى نحو ٨٠٠٠ ق.ح.، وحضارة أرقين وتؤرخ إلى نحو ٩٥٠٠ ق.ح.، وحضارة شارمكة، التي تؤرخ إلى نحو ٧٧٠٠ ق.ح. عند الشلال الثاني، إلى جانب حضارات أخرى (Hassan 1980: 436). هذه الحضارات كانت معاصرة لحضارات العصر الحجري الحديث في الصحراء. وفي الوقت الذي عرفت





• عبكة □ الفيوم ○ الخرطوم ◊ مابعد شامركة ◈ كرايجان ■ أخرى

الخريطة ٤: بعض مواقع العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م.).

أرخت هذه الحضارة إلى نحو (٥٤٠٠ ق.ح.) (Hassan 1985: 110).

ومن جبانة قرب الكاب، جاء تاريخ في نحو (٥٢٠٠ ق.ح.) لما عُرف لاحقاً بنقادة ٢-، التي شكّلت مرحلة الانتقال إلى الدولة المصرية في نحو (٥١٠٠ ق.ح.) (Hassan 1985: 110).

شهدت المنطقة جنوب الحدود السودانية المصرية الحالية حتى الشلال الثاني، ازدهار حضارتي عبكة ودبيرة عرفت بـ (Khartoum Variant)، اللتين أرحتا إلى نحو (٦٠٠٠-٥٠٠٠ ق.ح.) وعلى الرغم من تعاصرهما زمنياً وانحصارهما في رقعة جغرافية ضيقة، إلا أنهما عاشتا ظروف تكيف متباينة. فقد تميزت حضارة عبكة بنسبة عالية من المخارز الحجرية وفخار غير مزخرف، وتظهر بعض الارتباط بحضارة عبد القادر السابقة لها. أما حضارة دبيرة، فقد تميزت بفخار حوى بعض الزخارف العامة، التي عرفتها حضارة الخرطوم والشهيناب وحضارات الصحراء (Nordstrom 1972; Shiner 1968a, 1968 b) وإن غابت عنها الزخارف المميزة لتلك الحضارات، كما غابت أي أدلة للاستئناس (Mohammed- Ali 1982: 145).

وكشف مسح استطلاعي في منطقة الدبة، في شمال السودان (الخريطة ١)، عن عدة مواقع حوت أدوات حجرية وفخاراً أمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات حضارية، عُرفت بأسماء مواضعها، وهي: تفرس، وكارات، والمملك، وأم ببول (Shiner et. al. 1971) (الخريطة ٤)، تباينت جميعها في صناعاتها الحجرية وطرز الفخار وزخارفه. وليس بينها ما يشير إلى سمة حضارية مشتركة، كما لم ينتج عنها أي تاريخ، أو أي دليل للاستئناس. ولم يكشف المسح في المنطقة عن حضارات سابقة لها، يمكن ربط أي منها بها (Mohammed- Ali 1982: 153).

وخلال أعمال تنقيبية في منطقة عطبرة، كُشف عن ثلاثة من مواقع العصر الحجري الحديث في الدامر وعنييس وأبو دربين (الخريطتان: ١ و ٤) تركزت نتائج تأريخها بين (٨٠٠٠-٧٠٠٠ ق.ح.)، وقد حوت بعض أنواع الفخار، التي ميزت حضارة الخرطوم إلى جانب أدوات حجرية وعظمية، شملت

فيه آخرون علاقة تربط هذه الحضارات بمثيلاتها في سيناء (Butzer 1976: 11). كذلك، فإن الأعمال اللاحقة في الفيوم لم تكشف عن علاقة تطويرية، بين حضارة الفيوم وحضارة قارون السابقة لها في منخفض الفيوم (Wendorf 1171-1161: et. al. 1970)، التي تفصلها عنها نحو ١٠٠٠ عام.

وفي صعيد مصر، كُشفت عدة مواقع وجبانات عن حضارة عرفت بحضارة البداري، ازدهرت نحو (٦٠٠٠ ق.ح.) تميزت بأكواخ دائرية، وأوان فخارية، ذات فوهة سوداء جيدة الصقل بجدار رقيق وتقنية عالية. وقد ارتكز غذاء أصحابها، جزئياً، على القمح والشعير ولحوم البقر والضأن والماعز، إلى جانب حيوانات برية. دفن البداريون موتاهم في قبور، وقدموا القرابين لهم، وصنعوا دمي وأدوات للزينة، وصنابير للصيد، ومقاع ومناجل حجرية (Has- Arkell 1975: 35- 34; san 1985: 106). وهنا أيضاً يرى المنقبون أن الجماعة، التي حملت هذه الحضارة، كانت قد وفدت إلى النيل من الجنوب الشرقي، بحكم وجود أنواع من المحار تتوافر في البحر الأحمر (Arkell 1975: 34). وربط آخرون جذورها بحضارة الشهيناب، شمالي الخرطوم (Arkell 1975: 28). أعقبت البداري حضارة نقادة ١-، كما يشير التعاقب الطبقي في الهامية. وقد انتشرت حضارة نقادة ١- عبر عدة مواقع إلى الجنوب حتى الشلال الأول، وتميزت بفخار مصقول مزخرف بخطوط متقاطعة، وأشكال هندسية، وسكاكين حجرية، وصولجانات، ودمى حيوانية وبشرية. وتشهد نتائج التاريخ من المواقع إلى ازدهارها في نحو ٥٦٠٠ ق.ح. (Hassan 1985: 109). وقد لوحظ غياب أية مواقع في منطقة نقادة تؤرخ إلى الفترة بين (١٠٠٠٠ - ٧٠٠٠ ق.ح.) (Hassan 1985: 108).

سجّلت حضارة نقادة ٢- انتشاراً أوسع من سابقتها، نقادة ١-، وإن لم تسجل أي مستوطنات في الدلتا. وتشير المواقع إلى مجتمع طبقي عُرف فيه استخدام النحاس، واتخذت الأواني الفخارية أشكالاً فنية وحوت رسومات حيوانية ونباتية. وقد لوحظ بعض أوجه التطور في الصناعة الحجرية بين حضارتي نقادة ١- ونقادة ٢- (Arkell 1975: 42- 46).

وحتى ٤٠٠٠ ق.ح. حوت طبقاته السمات الحضارية المميزة لحضارتي الخرطوم والشهيناب، وما بعدهما (Marks and Mohammed- Ali 1991). ومن مواقع متفرقة حول مدينة خشم القربة تمثل العصر الحجري الحديث في مواقعه المبكرة، نحو ٦٥٠٠ - ٦٠٠٠ ق.ح. بسمات شبيهة بتلك التي عرفتتها حضارة الخرطوم، غير أنها اخذت في مراحل لاحقة سمات محلية خاصة بها، قبل أن تتحول من مستوطنات صغيرة إلى قرى كبيرة ذات تراكم حضاري عميق، نحو (٤٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق.ح.) (Marks, et. al., 1986: 44-50). وفي نحو ٥٠٠٠ ق.ح. بدأت منطقة النيل والصحراء تدخل في مرحلة جفاف نسبي. وأخذ حزام السافانا يتحول إلى حزام الساحل، أي أخذت خطوط المطر تتراجع جنوباً، كما أخذ حزام البحر المتوسط يتقهقر شمالاً. وبدأت الواحات الصحراوية تجف تدريجياً، وكذلك مصادر المياه السطحية الدائمة. واقتصرت المياه على الآبار قرب الأودية والمنخفضات، حيث يرتفع منسوب المياه، وتقلص الغطاء النباتي والحيواني (-Neumann 1993: 157, 163, 164).

ظهرت آثار فترة الجفاف تلك في الأجزاء الوسطى والشمالية من الصحراء، في وقت سابق لمثيلاتها في جنوب الصحراء، التي بقيت لبعض الوقت تحت تأثير حزام السافانا. فالأدلة، من عدة مواقع من شمال ووسط شرق الصحراء، تشير إلى بدء فترة جفاف وتدهور بيئي، منذ منتصف الألف السادس ق.ح. (Hassan 1980: 413). كذلك تشير الأدلة من نبتة والجرف الكبير ووادي بخت، إلى بداية حقبة جفاف بعد ٥٠٠٠ ق.ح. (Wendorf et. al. 1997: 92) وكذلك الحال في وادي شو، حيث كان الوضع المناخي في برج الطيور يسمح برعي الأبقار حتى نحو ٥٧٠٠ ق.ح. (Kropelin 251 - 250: 1993). وأخذت مواقع العصر الحجري الحديث المتأخر تتركز حول الأودية فقط كما هو الحال في الجرف الكبير واللقيّه (Schuck 1993: 247). وافتقرت الواحات للغطاء النباتي اللازم للرعي.

ومع تقهقر خطوط المطر جنوباً، أصبح وادي هور يتغذى فقط من مصادره المائية الجنوبية في الجبال، ما أدى إلى

الشفرات ذات الظهر والأهلة والمخارز والخطاطيف. وقد اعتمد الاقتصاد كلياً على الصيد البري والنهري وجمع البذور (Haaland and Abdulmagid, 1995: 49, 58, 113, 132, 191-194).

وحول مدينة الخرطوم، التي شكلت نواة لأبحاث حضارات العصر الحجري الحديث في حوض النيل، وشريط الساحل والصحراء الأفريقية، كُشف عن العديد من مواقع العصر الحجري الحديث، بعد التنقيبات التي جرت هناك خلال العقد الخامس من القرن العشرين (Arkell 1949b, 1953)، والتي نتجت عنها حضارتنا الخرطوم والشهينيات. وقد ازدهرت الأولى خلال الفترة بين (٩٠٠٠ - ٥٥٠٠ ق.ح.)، وحوت أدواتها الأهلة والمكاشط والخطاطيف العظمية، وشكّل الفخار ذو الخطوط المموجة السمة المميزة لها، وارتكز الاقتصاد كلياً على الصيد والجمع. أما الثانية التي أرخت إلى نحو (٥٥٠٠ - ٤٥٠٠ ق.ح.)، فقد تميزت بفخار مصقول وفووس مصقولة، وعرفت القليل من الحيوانات المستأنسة، إذ ارتكز الغذاء في الجانب الغالب منه، على الصيد البري والنهري والجمع (الخريطتان: ١ و ٤).

وإلى الجنوب من الخرطوم، على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، تنتشر الكثير من مواقع العصر الحجري الحديث، التي كُشف في إحداها (شابونة) عن مخلفات أرخت إلى نحو (٧٥٠٠ - ٧٠٠٠ ق.ح.) حوت أدوات حجرية، غلبت عليها المكاشط والأدوات الهندسية القزمية وأدوات الطحن والخطاطيف العظمية إلى جانب فخار يحمل بعض خصائص فخار موقع الخرطوم. وقد ارتكز الغذاء على الكائنات النيلية وحيوانات السافانا (Clark 1989: 389-405). وإلى الجنوب من شابونة، كُشفت مواقع قرب كوستي عن مخلفات شبيهة بتلك، التي عرفها موقع الشهيناب، خاصة الفخار المصقول. وقد أرخت المواقع إلى نحو ٦٠٠٠-٤٥٠٠ ق.ح. (Haaland 1984: 40-45). (الخريطتان: ١ و ٤).

وخلال أعمال أثرية في منطقة البطانة، بين نهري عطبرة والنيل الأزرق (الخريطتان: ١ و ٤)، كشف موقع "شق الدود" عن أعماق تعاقب طبقي، وأطول تسلسل حضاري، لحقبة العصر الحجري الحديث في وادي النيل، امتد منذ نحو ٨٥٠٠

التأثيرات الصحراوية على المناطق، التي تحد الصحراء، إذ تلاشت بعدها الوحدة الحضارية الصحراوية، وأخذ كل إقليم يسير في اتجاه تطوري يختلف عن الآخر.

أما على ضفاف النيل، فقد أسهمت موجات صحراوية مبكرة في بزوغ حضارة الفيوم في شمالي الوادي، تماماً كما أسهم وصول الموجة الأخيرة من تلك المجموعات، في بزوغ ثقافات نهاية العصر الحجري الحديث، أي ما يعرف بثقافات ما قبل الأسرات. فالواقع الحضاري في نبتة على سبيل المثال، في تاريخ سابق لظهور حضارات ما قبل الأسرات وقبيل موجة الجفاف الأخيرة في الصحراء، عرف المقابر الركامية، ومدافن الحيوانات، والمنشآت الحجرية الضخمة، والمباني الشاخصة والأشكال الفلكية، وكل ما يوحي بوجود نظام اجتماعي متماسك ومعقد، منذ الألف السابع ق.ح. غير أن ظروف الجفاف المحلية قادت إلى وقف تلك المسيرة. وقد وصلت هذه السمات إلى النيل مع الهجرات الصحراوية، وانصهرت في السمات النيلية، لتتولد عنها حضارات ما قبل الأسرات، التي عكست -على الرغم من تباينها- مجتمعات مستقرة، أو شبه مستقرة، على ضفاف النيل. مجتمعات مارست اقتصاداً مختلطاً، وبداية نمو قرى زراعية، ومجتمعاً طبقياً، كما يتضح من حجم المواقع والمقابر الملحقة بها، وما تحويه، أحياناً، من دلائل طقوس جنائزية. وتطورت القرى والمشايخات، التي عرفتها البداري ونقادة ١- ونقادة ٢ -، لتُرسى قواعد الدولة في نقادة ٣ -.

وفي أواسط وادي النيل، وفدت جماعات صحراوية مماثلة، لتلك الأسباب ذاتها، خلال الألف الخامس ق.ح. بعد أن جفت الواحات كلياً، في وقت لاحق لمثيلاتها في الشمال. وانعكست تلك الهجرات أيضاً على الحضارات النيلية (عبكة ودبيرة ذات التأثيرات الصحراوية السابقة)، لتظهر بوادر حضارة المجموعتين «أ»، ومن بعدها «ج»، بين الشلالين الأول والثاني، ومن بعدهما حضارة كرمة عند الشلال الثالث. فالحضارات «أ» و«ج»، امتزجت فيهما سمات صحراوية نيلية وأخرى صحراوية. ففي الوقت الذي تحول فيه اقتصاد المجموعة «أ» إلى اقتصاد رعوي، لعبت فيه الأبقار الدور الرئيس ما قاد إلى ارتحالهم إلى الأودية المجاورة، بعد أن

تحول المجري لاحقاً إلى سلسلة من السبخات، تغطيها الكثبان الرملية، وانقطع اتصاله بالنيل.

انعكست فترة الجفاف تلك على منسوب النيل، إذ أشارت الدراسات في الدلتا إلى توقف الفيضانات الموسمية الكبيرة، التي كانت تشهدها المنطقة خلال الفترة المطيرة السابقة. وانخفض منسوب النيل بدء من منتصف الألف السادس ق.ح. (Pawlikowski 1993: 356; De Wit 1993: 318). وتشير الأدلة من الفيوم إلى هبوط كبير في منسوب البحيرة في نهاية الألف السادس ق.ح. (Hassan 1986: 495). سواءً كان ذلك بسبب انخفاض منسوب النيل، أو شح الأمطار المحلية، أو الأثنين معاً. يدعم ذلك الدليل من النيل الأبيض جنوبي الخرطوم، حيث انخفض منسوب النيل مع بداية فترة الجفاف، وتحول شريط السافنا إلى شريط الساحل منذ من نحو ٤٠٠٠ ق.ح. (Williams and Adamson 1974: 585).

إزاء استمرار فترة الجفاف تلك وسيادتها، انحسرت حركة الترحال في الصحراء بين الجماعات البشرية، وتقلصت إمكانات الاتصال والتبادل، التي سادت بينها في الفترات المطيرة حين شكّلت الصحراء ما يشبه الوحدة الحضارية، خلال الحقب المبكرة من العصر الحجري الحديث، التي تمثلت في انتشار الفخار ذي الخطوط المموجة المتصلة والمتقطعة، وغيرها من السمات (Mohammed- Ali and Khabir, op. cit.). أخذت المجموعات الصحراوية على إثرها تبحث عن أماكن تؤمن لها مصادر غذائها، ومرتكزاتها الاقتصادية. فزحفت نحو مصادر المياه الدائمة وشبه الدائمة، تماماً كما حدث في المرات السابقة. فزحفت شرقاً نحو النيل وشمالاً نحو ساحل البحر المتوسط وجنوباً نحو حزام السافنا. وانحصرت بعض الجماعات في الجيوب الجبلية الصحراوية، في تبستي وعنيدي وتسييلي وهقار وغيرها.

تدعم ذلك عدة شواهد، من بينها هجرة مواقع شرق الصحراء وخلوها من أية أدلة تؤرخ إلى الفترات اللاحقة لبداية فترة الجفاف هذه، ووفود تأثيرات صحراوية إلى المناطق المجاورة.

وقد كان نزوح تلك الموجات الصحراوية هو آخر سلسلة

وهي مواقع صغيرة الحجم تنتشر في سهل البطانة بعيداً عن ضفة النهر (Mohammed- Ali and Jaeger 1987: 58). ولعل هذا التجمع في مستوطنات البطانة الزراعية، دليل على جفاف السهل بعيداً عن النهر، وقصوره عن حاجة الرعاة ما قاد، ربما، إلى تحول في المركز الاقتصادي للمجموعات السكانية من الرعي إلى الزراعة؛ ومن ثمَّ تحولها إلى مجموعات زراعية ونمو قرى زراعية تمركزت حول النهر، وظهور مجتمع طبقي شأن مجتمعات "ما قبل الأسرات" في الشمال.

يبدو من الواضح، إذن، أن حضارات العصر الحجري الحديث المبكرة على امتداد وادي النيل، تفتقر إلى أي دليل يشير إلى تطور محلي. فالجذور المحلية لتلك الحضارات غير واضحة، ويصعب ربطها بالحضارات السابقة لها. وينطبق هذا تماماً على حضارات مرمدة والفيوم والبداري ودبيرة والدبة والخرطوم وعطبرة وشق الدود وشابونة. ولعل هذا ما دفع كثيراً من الباحثين إلى ربط بعضها بجذور آسيوية، بحكم الاعتقاد بالسَّبق الآسيوي لخصائص العصر الحجري الحديث، وبحكم سيطرة الفكر الانتشاري، في تفسير ظاهرة التحول الحضاري آنذاك.

كذلك، يصعب الربط بين حضارات العصر الحجري الحديث، على امتداد وادي النيل، فيما بينها؛ فالسمات المميزة لكل منها تظهر تبايناً واضحاً، ما يشير إلى ضعف الاتصال بينها. ولعل هذه الاختلافات تعكس اختلافات، في جذورها الصحراوية.

### الشرح والاستنتاجات:

إن النزوح إلى مجاري المياه الدائمة والأنهار والمناطق ذات الوفرة النباتية والترحال بينها، أمر درجت عليه مجموعات الصيادين، والمجموعات الرعوية، في الماضي. أما مدى ذلك الترحال وحجمه، فأمر يحكمها نوع الممارسة وطرق التكيف والبيئات المتاحة؛ وربما يذهب الأمر بهذه المجموعات، أحياناً، إلى تحول تدريجي في متركزاتهم الاقتصادية. فالصيادون وجامعو القوت الحاليون، يرتحلون إلى حيث توفر لهم البيئة متطلبات حياتهم. إن قبائل السان الحالية في صحراء كلهاري،

كانت مجموعاتهم مستقرة على ضفاف النيل، كشفت المجموعة «ج» عن أدوات حجرية وأنواعاً من الفخار، مشابهة لتلك التي عرفتها مواقع الصحراء المتأخرة حول وادي هور، في الألف الخامس ق.ح. (Mohammed-Ali, 1982: 154, 173). وعسكت حضارة كرمة لاحقاً كثافة سكانية عالية، تمثلت في بناء «الدفوفات» الضخمة والمقابر الجماعية الهائلة، التي حوى بعضها ما يزيد على الخمسمائة هيكل بشري، لأفراد دفنوا أحياناً قريباً للحاكم (Reisner 1923). على الرغم من كثافة الأعمال الأثرية، التي تمت في منطقة الخرطوم، فإنها لم تكشف عن أية مواقع يمكن أن تسد الفراغ بين مواقع العصر الحجري القديم الأوسط، التي تنتشر على المنحدرات الجبلية على الضفة الغربية للنيل غربي الخرطوم، وبين مواقع العصر الحجري الحديث، التي تنتشر على ضفتي النيل. وفي غياب جذور محلية واضحة لحضارة العصر الحجري الحديث (حضارة الخرطوم)، وملاحظة الفارق الزمني والتقني الهائل بينها وحضارات العصر الحجري القديم الأوسط، نجد من الضروري، على الأقل، البحث عن جذور أو تأثيرات خارجية. هذه التأثيرات لم تأت من الشمال أو الجنوب، أولاً؛ لأن تاريخ المستوطنات الشمالية والجنوبية المشابهة، تاريخ لاحق لحضارة الخرطوم وليس سابق لها؛ وثانياً؛ لأن تشابه البيئة النيلية على امتداد أواسط السودان، لا يشكل عامل جذب لاية مجموعة نيلية للانتقال على امتداد النيل، نحو الشمال أو الجنوب. وعلى ذلك، وفي غياب أي دليل لتأثيرات من شرق النيل، يبقى الأصل الصحراوي هو أكثر الفرضيات احتمالاً.

وإلى الشرق من النيل يتزامن هذا التحول المناخي الحضاري، مع تحول مشابه شهدته منطقة البطانة في أواسط السودان، حيث برزت بشكل مفاجئ في منتصف الألف الخامس ق.ح. مستوطنات كبيرة الحجم، عرفت بمواقع البطانة، يغطي الواحد منها نحو ١٠ هكتارات، تحوي تراكماتاً حضارياً يصل إلى مترين ونصف (Marks et. al. 1986: 47- 48)، وتمركزت هذه المواقع على ضفاف نهر عطبرة. وكانت الفترة السابقة لظهور هذه المواقع قد عرفت حضارة الصاروبا، التي تعود إلى أواسط العصر الحجري الحديث،

أفريقيا. وعلى الرغم من أن وادي النيل والصحراء المجاورة له، كان لهما دورهما في انتشار الإنسان وحضارته المبكرة، إلا أننا لا نزال نفتقر إلى ذلك الدليل؛ فالأعمال الأثرية لم تكشف في أي منهما عن أدوات الدوانية أو اشولية مبكرة. غير أن المراحل الوسطى والمتأخرة من العصر الأشولي، شهدت انتشاراً واسعاً للمواقع في النيل والصحراء، وإن لم تحظ هذه المواقع جميعها بالدراسة الكافية، في وقت سمحت فيه الأحوال البيئية بتكيف محلي، على الرغم من توافر الظروف الملائمة للترحال. وحين أسدل الستار على حقبة البلايستوسين الأوسط، هُجرت المواقع الصحراوية لتركز النشاط البشري، خلال حقبة الجفاف، حول ضفاف النيل.

٢- مع بداية البلايستوسين الأعلى، سادت في الصحراء ظروف مناخية جاذبة دفعت بعض الجماعات البشرية، التي انحصرت حول مجرى النيل في فترة الجفاف السابقة، نحو الصحراء. وهناك ازدهرت الثقافات الموسيقية وغيرها باختلاف تقنياتها، حيث تلاقت ثقافات وافدة من مختلف المناطق المجاورة للصحراء.

٣- إن كثافة مواقع حضارات العصر الحجري القديم الأعلى والأعلى المتأخر، وتنوعها على ضفاف النيل في نهاية حقبة البلايستوسين الأعلى، توحى بهجرات متعددة ومن بيئات متباينة، أو على الأقل بأنماط تكيف مختلفة، دفعت بها ظروف الجفاف إلى مصادر المياه الدائمة، أو شبه الدائمة، على النيل. لقد عكست تلك الحضارات اختلافات ليست فقط في مرتكزاتها التقنية ونوع الأدوات، بل حتى تفاوتاً في درجة الاعتماد على تقنية بعينها، أو نوع بعينه. لقد تباينت الصناعة بين إنتاج الشظايا والشفرات، وبين التقنية اللفلوازية وغيابها، وبين وجود أدوات قزمية وعدمها، عدا الاختلاف الهائل في أنواع الأدوات ذاتها؛ بل ومن بينها حضارات تفرّد وجودها في موقع واحد.

٤- مع بداية حقبة الهولوسين بدأت الأحوال المناخية في الصحراء تتحسن تدريجياً، ما دفع ببعض المجموعات

على سبيل المثال، ترحل تحت وطأة حدة الجفاف، إلى حيث تسمح الظروف المناخية بتوافر الحد الأدنى من الحيوانات والنباتات البرية الكافية لغذائهم (Yellen 1977).

وفي المنطقة، التي يتناولها هذا البحث، درجت المجموعات الرعوية على نمط من الترحال وراء المرعى، حين تقصّر البيئة عن الحد الأدنى لمتطلباتهم (Sadri 1991: 6-11)، و ما تزال هذه المجموعات تمارس ذلك النوع من الترحال. فالقبائل الرعوية في شمال السودان وغربه، درجت على النزوح إلى ضفاف النيل وفروعه كلما اختلفت الموازنة، بين عطاء البيئة وحاجة حيواناتهم. فالجفاف الذي ضرب شريط الساحل الأفريقي خلال العقدين الثامن والتاسع من القرن العشرين، مثلاً، قاد تلك المجموعات الرعوية إلى النزوح شرقاً نحو النيل، وجنوباً نحو شريط السافانا. ذلك هو حال قبائل البديرية حول وادي الملك في شمال السودان، وقبائل المسيرية حول بحر العرب في غرب السودان. وعلى الرغم من أن بعض تلك المجموعات عاودت ترحالها حين تحسنت الأحوال، واستقرت في بيئاتها السابقة، إلا أن بعضها آثر البقاء على النيل، وتخلّى تدريجياً عن الاقتصاد الرعوي، لتمارس اقتصاداً مشتركاً تلعب فيه الزراعة دوراً أساسياً.

وخلافاً لما عليه الحال في الصحراء، التي ارتبط الاستيطان فيها بسيادة ظروف بيئية ملائمة لطبيعة التكيف، فإن تسلسل أدوار ما قبل التاريخ على ضفاف النيل ما يزال يحوي الكثير من الثغرات، التي نتجت: إما عن شح، أو غياب المواقع، التي تعود إلى بعض الحقب، وإما لخلل في استراتيجيات الأعمال الأثرية في الماضي والحاضر، وإما لضياع المواقع تحت وطأة الاستغلال المكثف للأرض. وتجسد هذه الحقيقة بعض الصعوبة أحياناً في كشف طبيعة التناغم بين النيل والصحراء في بعض تلك الحقب، على الرغم من وضوح ذلك التناغم خلال المسيرة بوجه عام.

إن المناقشة السابقة عن علاقة النيل والصحراء، وما كشفت عنه التنقيبات في كليهما، تقودنا إلى عدة مؤشرات نوردتها فيما يلي:

١- لا تزال الأدلة، إلى حد بعيد، تدعم الرأي القائل بظهور الإنسان وبزوغ الحضارة البشرية لأول مرة في شرق

(الماعز والضأن) لم تظهر في الشام إلا في مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار - ب (PPNB). غير أنه لا مناص من التسليم بأن القمح والشعير والماعز والضأن، أضيفت إلى التراث الحضاري النيلي الصحراوي بعد ٧٠٠٠ ق.ح.، لتمتج بالعناصر المحلية كاستئناس الأبقار وصناعة الفخار.

٨- ظهرت الزراعة كإحدى سمات العصر الحجري الحديث متأخرة نسبياً، عن السمات الأخرى في النيل والصحراء. وخلافاً لتعذر العثور على الدليل المباشر عليها، فإن النبات أكثر حساسية تجاه التحولات المناخية من الحيوان، بحكم مقدرة الأخير على الحركة، وقابليته للتكيف مع ظروف الجفاف. وقد حفلت مواقع الصحراء بالكثير من أدوات الطحن، ما يشير إلى مرحلة من الاستغلال المكثف للنبات في الفترات المطيرة، دون القفز به إلى مرحلة الزراعة.

٩- على الرغم من الظروف البيئية، وطرق التكيف المتشابهة على ضفاف النيل، إلا أن هناك اختلافات هائلة بين حضارات العصر الحجري الحديث النيلية، المتعاصرة منها وشبه المتعاصرة، ما يعكس ضعف الاتصال بينها، من ناحية، وجواز اختلاف جذورها الصحراوية، من ناحية أخرى. يبرز ذلك عند مقارنة حضارات: مرمدة والفيوم والبداري ودبيرة والخرطوم، مثلاً. إن هذه الاختلافات لا تدعم فكرة الانتشار أو الهجرة من الشمال إلى الجنوب، خاصة أن حضارات الجنوب، (البداري مثلاً)، أكثر تطوراً من رصيفاتها الشمالية المعاصرة.

١٠- هناك توافق زمني بين بداية فترة الجفاف الأخيرة في الصحراء، ووصول سمات صحراوية إلى النيل. فقد سادت آخر مراحل العصر الحجري الحديث في الصحراء خلال الألف السادس ق.ح.، نزحت بعدها الجماعات الصحراوية بشكل تدريجي إلى المناطق المجاورة. فخجار البداري المصقول، ذو اللون الأحمر والأسود، عرفته المواقع الصحراوية المتأخرة في نبتة. وكذلك، أنواع فخار أخرى في حضارتي دبيرة وعبكة، خلافاً لما جادت به نبتة على مجتمعات ما قبل الأسرات من نبتة، وضعت

النيلية إلى الارتحال غرباً، والتمركز حول السبخات، حيث يُلاحظ غياب مواقع العصر الحجري الحديث المبكر حول الأودية، التي لم تكن قد بدأت جريانها. ولعل تلك هي الفترة التي شهدت البدايات الأولى للاستئناس (حيث تتوفر الأصول البرية للأبقار)، وصناعة الفخار، في الصحراء. فأقدم الأدلة على صناعة الفخار والاستئناس في وسط الصحراء وشرقها، تأتي من أماكن تجمع المياه في الجيوب الصخرية والمنخفضات، في: هقار وتميدون وتسيلي وتبستي وطن الطورة ونبتة وخلافها، وتؤرخ إلى الألفين التاسع والعاشر ق.ح.

٥- يشير الكم الهائل من نتائج تأريخ الكربون - ١٤ إلى أن ظهور استئناس الأبقار، وإنتاج الفخار في مواقع الصحراء، قد سبق مثيلاتها في شمال أفريقيا ووادي النيل (باستثناء فخار الخرطوم) بعدة آلاف من السنين؛ ما يعني قيام مراكز مستقلة في الصحراء، نتيجة تكيف بيئي محلي لمجموعات بشرية عاشت ظروفًا قاسية، خلال حقبة نهاية البلايستوسين، تاركة رصيفاتها على النيل، ولفترة طويلة بعد ذلك، في مرحلة لم تعرف الاستئناس والفخار بعد.

٦- قادت فترات الجفاف القصيرة خلال الهولوسين، بعض المجموعات الصحراوية إلى النزوح إلى ضفاف النيل، حاملة معها بعض سمات العصر الحجري الحديث؛ إذ يلاحظ، مثلاً، أن ظهور استئناس الأبقار والفخار على المواقع النيلية، لأول مرة، لم يكن مفاجئاً فحسب، بل كان متزامناً مع بداية فترة جفاف قصيرة في نحو ٧٠٠٠ ق.ح. يدعم ذلك أوجه الشبه في تقنية الأدوات وأنواعها، بين الحضارات الصحراوية وحضارات العصر الحجري الحديث المبكرة على النيل (الفيوم مثلاً).

٧- على الرغم من وجود نباتات مستأنسة (القمح والشعير) في الشام، منذ مرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار - أ (PPNA) إلا أن تلك النباتات لم تعرفها حضارات وادي النيل إلا في مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث. كذلك فإن الحيوانات المستأنسة

المجتمعات النيلية على عتبة المدينة.

تلك التحولات، بحكم أنها عاشت في منطقة أكثر

١١- إن التحولات الحضارية، التي شهدتها منطقة النيل وشرق الصحراء خلال حقب العصور الحجرية، مرتبطة، إلى درجة ما، بظروف بيئية متقلبة بين الرطوبة والجفاف خلال تلك الحقب، قادت، في الكثير من الأحيان، إلى امتزاج ثقافي سكاني بين الجماعات المحلية على النيل، والجماعات الوافدة من الصحراء، تولدت عنها حضارة هجين، جمعت بين شرائح الاقتصاد والتقنية والمعتقدات والعمارة وخلافها. وقد كانت الجماعات الصحراوية هي صاحبة الريادة في

حساسية للتحولات البيئية، كما كانت أكثر قابلية

للتكيف. ولعل هذا الوضع، فيما نظن، يقدم تفسيراً،

مؤقتاً، على الأقل، لظاهرة التحولات الحضارية المفاجئة

للحضارات النيلية، وإرساء قاعدة الدولة عند فجر

التاريخ في وادي النيل.

**د. العباس سيد أحمد محمد علي؛ قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود، ص.ب: ٢٤٥٦ - الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية.**

هامش:

يتقدم الباحث بالشكر لكل من الدكتور يوسف مختار الأمين، والأستاذ الدكتور عبد القادر محمود عبد الله، على ما أبدياه من ملاحظات أثرت بعض جوانب هذا البحث.



## المراجع

### أولاً: المراجع العربية:

الأمين، يوسف مختار، ١٩٢٢هـ "العصور الحجرية في وادي النيل" **العصور**، ١٢، ص ٧ - ٣٣.

### ثانياً: المراجع غير العربية:

Adamson, A., Gilleopie, R. and Williams, M. 1982. "Palaeogeography of the Gezira and of the Lower Blue and White Nile Valleys", in M. Williams and A. Adamson (eds), p. 165-219.

Arkell, A. 1949a. **The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan**, S.A.S., Khartoum.

Arkell, A. 1949b. **Early Khartoum**, Oxford University Press, Oxford.

Arkell, A. 1953. **Shaheinah**, Oxford University Press, Oxford.

Arkell, A. 1975. **The Prehistory of the Nile Valley**, E. Brill, Leiden.

Butzer, K. 1971. **Environment and Archaeology**, Aldine, Chicago.

Butzer, K. 1976. **Early Hydraulic Civilization in Egypt**, University of Chicago Press, Chicago.

Butzer, K. and Hansen, C. 1968. **Desert and River in Nubia**, University of Wisconsin Press, Madison.

Camps, G. 1975. "The Prehistoric cultures of North Africa: Radiocarbon Chronology". In: Wendorf, F. and Marks, A. (eds) **Problems in Prehistory: North Africa and the Levant**, S.M.U. Press, Dallas, p. 181-192.

Caton-Thompson G. and Gardner, E. 1934. **The Desert Fayum**, R.A.I. G.B.I. London.

Chmielewski, W. 1968. "Early and Middle Palaeolithic sites near Arkin" in Wendorf, F. (ed.) p.110-147.

Clark, J. 1989. "Shabona: an Early Khartoum settlement on the White Nile" in Krzyzaniak and Kobusiewicz (eds), p. 387-410.

Close, A. 1984. "Current Research and Recent Radio-

carbon Dates from Northern Africa", **Jour. of African History**, 25, p. 1-24,

Close, A. 1987. **Prehistory of Arid North Africa**, S.M.U. Press, Dallas.

Close, A. and Wendorf, F. 1989. "North Africa at 18000 B.P.". In: C. Gamble and Soffer, O. (eds.), **The World at 18000 B.P.**, Unwin Hyman, London, p. 42-57.

Daniel, G. 1981. **A Short History of Archaeology**, Thomas and Hudson, New York.

DeWit, H. 1993. "The evolution of the eastern Nile Delta as a factor in the development of human culture" in Krzyzaniak et. al. (eds.). p. 305-320.

Elamin, Y. M. 1981. **Later Pleistocene Cultural Adaptations in the Sudanese Nubia**, B. A. R. Oxford.

Elamin, Y. M. 1987 "The later Palaeolithic in Sudan in the light of new data from the Atbara". In: Hagg, T. (ed.) **Nubian Cultures Past and Present**, Kungl, Stockholm, p. 33- 46.

Gabriel, B. 1976. "Neolithische steinplatze und Palaeoekologie in den Ebenen der ostlichen Zentral-Sahara" **Paleoecology of Africa**, IX, p. 25-40.

Gabriel, B. 1984. "Great plains and mountain areas as habitats for Neolithic man in the Sahara" in Krzyzaniak and Kobusiewicz (eds), p. 391-398.

Gabriel, B. 1986. "Paleoecological evidence from neolithic fire places in the Sahara", a paper read in a conference in honour of J. Desmond Clark, April 12-16th 1986.

Gabriel, B. and Kropelin, S. 1984. "Holocene lake deposits in north western Sudan", **Paleoecology of Africa**, vol. 16, p. 295-299.

- Gabriel, B., Kropelin, S., Richter, J., Gziesla, E. 1985. "Parabeldunen am Wadi Howar" *Geowissenschaften in unserer Zeit*, 4, p. 105-12.
- Gautier, A. 1993. "The faunal spectrum of the Middle Palaeolithic in Bir Tarfawi, western desert of Egypt." in Krzyzaniak et al. (eds). P. 123-127.
- Grove, A.T., 1993. "Africa's climate in the Holocene". In: Shaw et al. (eds.) **The Archaeology of Africa**, Routledge, London.
- Guichard, J. and Guichard, G. 1965. "The Early and Middle Palaeolithic of Nubia". In: Wendorf, F. (ed.) **Contribution to the Prehistory of Nubia**, S. M. U. Press, Dallah, p. 57-116.
- Guichard, J. and Guichard, G. 1968. "Contributions fo the Study of the Early and Middle Palaeolithic of Nubia" in Wendorf, F. (ed.), p. 148-193.
- Haaland, R. 1984. "Continuity and discontinuity", **Norwegian Archaeological Review**, 17, p. 39-51.
- Haaland, R. and Abdulmagid, A. 1995. **Aqualithic Sites along the Rivers Nile and Atbara, Sudan**, Alma Mater, Borgen.
- Hassan, F. 1974. **The Archaeology of the Dishna Plain, Egypt**, The Geological Survey of Egypt, Cairo.
- Hassan, F. 1976. "Prehistoric studies of the Siwa oasis region, northwestern Egypt", **Nyami Akuma**, No. 9, p. 18-34.
- Hassan, F. 1978. "Archaeological explorations of the Siwa oasis region", **Current Anthropology**, 19, p. 146-148.
- Hassan, F. 1980. "Prehistoric settlements along the Main Nile". In: Williams, M. and Faure, H. (eds), **The Sahara and the Nile**, Balkema Rotterdam.
- Hassan, F. 1985. "Radiocarbon chronology of Neolithic and Predynastic Sites in Upper Egypt and the Delta", **The African Archaeological Review**, 3: 95-116.
- Hassan, F. 1986. "Holocene lakes and Prehistoric settlements of western Fayum, Egypt", **Jour. of Archaeological Science**, 13: 483-501.
- Haynes, C., Mehringer, P., Zaghloul, S. 1979. "Pluvial lakes of northwestern Sudan" **Geog. Journal**, 145: 437-445.
- Haynes, V. 1987. "Holocene migration rates of Suda-no-Sahelian wetting front, Arabian Desert Eastern Sahara" in A. Close (ed), p. 69-84.
- Jesse, F. 2000. "Early Khartoum ceramics in the Wadi Howar, Northeastern Sudan" in Krzyzaniak et al. (eds) p. 77-87.
- Keding, B. 1993 "Leiterband sites in the Wadi Howar, Northern Sudan" in Krzyzaniak et. al. (ed), p. 371- 386.
- Keding, B. 2000. "New data on the Holocene occupation of the Wadi Howar region, Eastern Sahara, Sudan" in Krzyzaniak et al. (eds), p. 89-104.
- Kropelin, S. 1993 "The Gilf Kebir and Lower Wadi Howar..." in Krzyzaniak et. al. (eds), p. 249- 258.
- Krzyzaniak, L. and Kobusiewicz, M. (eds) 1984. **Origin and Early Development of Food-Producing Cultures in Northeast Africa**, poznan.
- Krzyzaniak, L. and Kobusiewicz, M. (eds) 1989. **Late Prehistory of the Nile Valley and the Sahara**, Pznan.
- Krzyzaniak, L., Kobusiewicz, M., Alexander, J. (eds), 1993. **Environmental Change and Human Culture in the Nile Basin and Northern Africa until the 2nd Mill. B.C.**, Poznan.
- Krzyzaniak, L., Kobusiewicz, M., Kroeper, K. (eds), 1996. **Interregional Contadcts in the Later Prehistory of Northeastern Africa**, Poznan.
- Krzyzaniak, L., Kobusiewicz, M., Kroeper, K., (eds) 2000. **Recent Research into the Stone Age of North-eastern Africa**, Poznan.
- Kuper, R. 1993. "Environmental change and cultural development in the Abu Ballas area" in Krzyzaniak et al. (eds), p. 213-223.
- Kuper, R. 1995. "Prehistoric research in the southern Libyan desert: A brief account and some conclusions of the B.O.S. Project", **The 8th Conference for Nubian Studies**, Lille, p. 123-140.
- Lubell, D., 1974. **The Fakhurian**, The Geological Survey of Egypt, Cairo.
- Maley, J. 1977. "Paleoclimates of Central Sahara during the early Holocene", **Nature** 269: 573-578.
- Marks, A. 1968. "The Moustrian industries of Nbia" in

- Wendorf (ed.) p. 194- 314.
- Marks, A. and Mohammed-Ali, A. 1991. **The Late Prehistory of the Eastern Sahel**, S.M.U., Dallas.
- Marks, A., Mohammed-Ali, A., Fattovich, R. 1986. "The Archaeology of the Eastern Sudan", **Archaeology**, 39: 44-50.
- McDonald, M. 1996. "Relations between Dakhleh Oasis and the Nile in the Mid-Holocene: A Discussion" in Krzyzaniak et al. (eds.) p. 93-99.
- McHugh, W. 1975. "Some archaeological results of the Bagnold-Mond expedition to the Gilf Kebir and Gebel Uweinat, southern Libran desert ", **Journal of Near Eastern Studies**, 34: 31-62.
- McKim, M., Wendorf, F. Mazar, A. Schild, R. 1998. "Megaliths and Neolithic astronomy in southern Egypt", **Nature**, 392: 488-491.
- Mohammed- Ali, A. and Khabir, A. "The wavy line and the dotted wavy Line pottery in the prehistory of the Nile and the Sahara- Sahel belt", **African Archaeological Review**, in press.
- Mohammed- Ali, A. 1982. **The Neolithic Period in the Sudan: 6000-2500 B.C.** B. A. R., Oxford.
- Mohammed- Ali, A. and Jaeger, S. 1987. "Early ceramic assemblages of the eastern Sudan: a re- evaluation of the Khartoum Horizon Style", **Ages**, 2: 54- 59.
- Neumann, K., 1993. "Holocene vegetaiton of the Eastern Sahara", in Krzyzaniak and Kobusiewicz (eds.) p. 153-169.
- Nordstrom, H. 1972. **Neolithic and A. Group Sites**, Scandinavian University Books, Stockholm.
- Pachur, H. and Kropelin, S. 1987. "Wadi Howar: Paleoclimatic Evidence from an extinct river system in southeastern Sahara", **Science**, 237: 298-300.
- Pawlikowski, M. 1993. "Mineralogy of Nile Valley sediments as indicator of change of climate". in Krzyzaniak et. al., p. 355- 357.
- Petit-Maire, N. 1988. "Climatic changes and Man in the Sahara". In: Bower, J. and Lubell, D. (eds), **Prehistoric Cultures and Environment in the Late Quaternary of Africa**, B.A.R. Oxford, p. 19-42.
- Phillips, J. 1973. **Two Final Paleolithic Sites in the Nile Valley and thien Exlernal Relations**, The Geological Survey Egypt, Cairo.
- Reisner, G. 1923. **Excavations at Kerma**, H.A.S., Cambridge, Mass.
- Sadr, K. 1991. **The Development of Nomadism in Ancient Northeast Africa**, Univ. of Penn. Press, Philadelphia.
- Schild, R. and Wendorf, F. 2001. "Geoarchaeology of the Holocene", **Geoarchaeology**, Vol. 16, No. 1: 7-28.
- Schon, W. 1996. "The Late Neolithic of Gilf Kebir: evolution and relations" in Krzyazniak et al. (eds.) p. 115-120.
- Schuck, W. 1993. "An archaeological survey of the selima Sandsheet, Sudan" in Krzyzaniak et al. (eds), p. 235-248.
- Servant, M. and Servant, S. 1972. "Nouvelles donnees pour une interpretation paleoclimatique de series continentals du Basin Tchadien", **Palaeoecology of Africa**, vol. 6: 87-92.
- Shiner, J. 1968a. "The Cataract Tradiction" in Wendorf (ed), p. 535-629.
- Shiner, J. 1968b. "The Khartoum Variant Industry" in Wendorf. (ed.) p. 786-790.
- Shiner, J., Marks, A., Chemielewski, V., de Heinzelin, J. and Hays, T., 1971. **The Prehistory and Geology of Northern Sudan**, a report for N. S. F. Dallas.
- Trigger, B. 1989. **Ahistory of Archaeological Thought**, Cambridge University Press, Cambridge.
- Wasylikowa, K., Milka, J., Wendorf, F., Schild, R. 1997. "Exploitation of wild plants by the Early Neolithic hunder-gatherers of the Western desert, Egypt: Nabta Playa as a case study", **Antiquity**, 71(274), p. 932-941.
- Wendorf, F. 1968. **The Prehistory of Nubia**, S. M. U. Dallas.
- Wendorf, F. and Schild, R. 1976. **Prehistory of the Nile Valley**, Academic Press, New York.
- Wendorf, F. and Schild, R. 1980. **Prehistory of the Eastern Sahara**, Academic Press, New York.

Wendorf, F. and Schild, R. 1984. **Cattle- Keepers of the Eastern Sahara**, S. M. U. dallas.

Wendorf, F. and Schild, R. 1989, **The Prehistory of Wadi Kubbaniya**, S.M.U., Dallas.

Wendorf, F. and Schild, R. 1996. "The Middle Palaeolithic settlements system in the Eastern Sahara". In: Conard, N. et al. (ed.) **Middle Palaeolithic and Middle Stone Age Settlement Systems**. U.I.S.P. XIII Congress, Forli-Italia, p. 305-312.

Wendorf, F. and Schild, R. 1998. "Nabta Playa and its role in northeastern African Prehistory", **Journal of Anthropological Archaeology**, 17, p. 97-123.

Wendorf, F., Said, R. and Schild, R. 1970. "Egyptian Prehistory: some new concepts" **Science** 169: 1161-1171.

Wendorf, F., Schild, R., Applegate, A., Gautier, A. 1997. "Tumuli, cattle burials and society in the eastern Sahara", **Proceedings of the Forum for African Archaeology**, p. 90-104.

Wendorf, F., Schild, R., Close, A. 1993. "Middle Palaeolithic occupations at Bir Tarfawi and Bir Sahara

east, Western desert of Egypt" in Krzyzaniak et al. (eds). P. 103-111.

Wendorf, F.; Close, A.; Schild, R. 1991. "Libyan Desert" a paper read in the Symposium for Palaeoenvironment and Prehistoric Population of the Sahara in the Upper Pleistocene, Solignac, France 13-15 June.

Wickens, G. 1982. "Palaeobotanical speculations and Quaternary environments in the Sudan" in M. Williams and Adamson (eds) p. 23-50.

Willey, G. and Sabloff, J. 1974. **A History of American Archaeology**, Freeman and Company, San Francisco.

William, M. and Adamson, A. 1974. "Late Pleistocene desiccation along the White Nile", **Nature**, 248: 584-6.

Williams, M. and Adamson, A. (eds) 1982. **A Land between Two Niles**, Balkema, Rotterdam.

Yellen. J. 1977. **Archaeological Approaches to the Present Models for Reconstructing the Past**, Academic Press, London.